13 me Année No. 647

Lundi—26—11—1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان

١٥٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٤٧ « القاهرة في يوم الإثنين ٢١ ذو الحجة سنة ١٣٦٤ — ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

في مصر فلســـفة

للأستاذ عباس محمود العقاد

نعم في مصر فلسفة

ونحمد الله على ذلك كما حمد فردريك الكبير ربه على أن في برلين قضاء

ولكننا نحن أولى بالحمد من فردريك الكبير ، لأن القضاء العادل ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية يتفقدها الناس إذا فقدوها ، ويجدونها إذا طال تفقدها ، وكان بهم صلاح لوجودها.

أما الفلسفة فلا يبحث عنها من يفقدها ، لأن من يفقدها يجهلها ولا يحفل بها ، وقد يسخر منها إذا سمع بذكرها ، وقد يتفق أصدقاؤها وأعداؤها على أنها نافلة من النوافل وزيادة من الزيادات ، وإن قال الأصدقاء إنها نافلة الكمال ولا غنى عن الكمال ، وزيادة الفضل ولا تطيب للفاضلين حياة المفضولين

فإذا كان القضاء العادل ضرورة محسوسة فصناعة الفلسفة ليست بضرورة من ضرورات المعاش ، أو هي على الأقل ليست من الضرورات المحسوسات : تلك ضرورة وطن وزمن ، وهذه ضرورة لا يشعر بها الإنسان إلا إذا تجاوز نطاق الأوطان وأصبح نطاقه الكون كله ، في كل زمان

أو هي العلم الكلى كما قال المعلم الثاني أبو نصر الفارابي :

« فإن العلوم منها جزئية ومنها كلية ، والعلوم الجزئية هي التي موضوعاتها بعض الموجودات أو بعض الموهومات ... مثل علم الطبيعة فإنه ينظر في بعض الموجودات وهو الجسم من جهة ما يتحرك ويتغير ويسكن عن الحركة ، ومن جهة ما له مبادئ ذلك ولواحقه ... أما العلم الكلى فهو الذي ينظر في الشيء العام لجميع الموجودات مثل الوجود والوحدة ، وفي أنواعه ولواحقه ، وفي الأشياء التي لا تعرض بالتخصيص لشيء شيء من موضوعات العلوم الجزئية مثل التقدم والتأخر والقوة والفعل والتام والناقص وما يجرى مجرى هذه ، وفي المبدأ المشترك لجميع الموجودات ، وهو الشيء الذي ينبغي أن يسمى باسم الله جل جلاله ... لأن الله مبدأ للموجود المطلق لا لموجود دون موجود . فالقسم الذي يشتمل منه على إعطاء مبدأ الموجود ينبغي أن يكون هو العلم الإلهي ، لأن هذه المعاني ليست خاصة بالطبيعيات بل هي أعلى من الطبيعيات عموماً . فهذا العلم أعلى من علم الطبيعة ، وواجب أن يسمى علم ما بعد الطبيعة ... »

وكلام صاحبنا الفارابي على تركيته العربية أو عربيته التركية كلام صحيح في التعريف بفضل الفلسفة أو البحث فيما وراء المادة وما وراء الزمان والمكان ، ولكننا بعد ما قدمناه في موقع الفلسفة من الضرورة نعود فنقول : إنها ليست من البعد عن حياتنا الفردية أو حياتنا الاجتماعية بحيث تخرج من عالم الطبيعة إلى ما وراءها ،

وإن الإنسان ما عاش ولن يعيش بغير فلسفة حياة منذ بحث فى العلاقة بينه وبين العالم المنظور والعالم المحجوب ، ومرحلة الحياة كما قلنا فى بعض كتبنا الحديثة : « كجميع المراحل التى نقطعها من مكان إلى مكان ، لا نركب القطار حتى نحصل على التذكرة ، ولا نحصل على التذكرة حتى نعرف الغاية التى نسير إليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثانى لا يقرأها ، أو أن أحدهما يؤدى ثمنها من ماله والثانى يؤدى له الثمن من مال غيره ... »

والعجب أن بعض الفضلاء من طلاب الحقيقة لاينظرون إلى الفلسفة هذه النظرة ، ولا يحجمون عن نعتها باللغو الفارغ والهذر الذى ليس وراءه طائل ، وكذلك فعل الكاتب النزيه الأستاذ نقولا حداد حين جرى البحث على صفحات (الرسالة) عن وحدة الوجود ، فضرب المثل على سخف المذاهب الفلسفية القديمة بقول فيثاغورس إن العدد هو سر الوجود ، وإن النسبة بين الأشياء هى نسبة بين أعداد



قال فيثاغورس ذلك قبل خمسة وعشرين قرناً ، فكان فرضه هذا أقرب إلى الصدق من فروض علمية كثيرة فتن بها الناس إلى سنوات

وقاله فيثاغورس حين رأى أن الأوصاف كلهـا قد تفارق الموجودات من لون أو لمس أو صلابة أو ليونة أو وزن أو ما شابه هذه الأعراض الكثيرة إلا العدد ؛ فإنه ملازم لكل موجود ، فرداً كان أو أكثر من فرد ، وكاملا كان أو غير كامل ، وأن الفروق بين الأشياء هى فروق بين تركيب وتركيب أو فروق بين نسب الأعداد ، وأن الكون كله « دور موسيقى » هائل يدور على قياس منسجم كما يدير العازف الماهر ألحان الغناء

وأنشد الكون ألحانه التى لا عداد لها ، وتوالت الفترات التى نعدها نحن بالسنوات والقرون ، وظهر اليوم للباحثين أن الأجسام نسب بين أعداد ، وأن الفارق بينها فارق فى هذه النسب دون غيرها ، وأن التناسق فى هـذه النسب أصدق من أجرام المادة الملموسة باليـدين ، وأن الأصح فى تركيب الذرة أن يقال إنه « عددى » لا أنه « مادى » ملموس

وإذا قال فيثاغورس هذه المقالة قبل خمسة وعشرين قرناً ، فليس من حقه أن توصف مقالته بالفراغ وهى أملأ من فروض العلماء بعده فى معنى الوجود وفوارق الأجسام ، وهى على أضعف الأحوال أدق من قول بعض العلماء إن أصل المادة أثير

* * *

وكان الفلاسفة يبحثون فى العقل والمادة من عهد الفراعنة إلى عهد اليونان إلى عهد العرب إلى عهد الأوربيين المحدثين

يسأل سائل : أهما محدثان أو قديمان ؟

ويسأل آخر : وإذا كانا محدثين فمن الذى أحدثهما ؟

ويسأل غيرهما : وإذا كانا قديمين فكيف يتفق قديمان ليس لواحد منهما بداية ولا نهاية ؟

ويعود هذا السائل أو ذاك فيقول : وإذا كان أحدهما سابقاً للآخر وموجداً له فأيهما الأول وأيهما الثانى فى ترتيب الوجود ؟

ويفترق المجيبون فيقول فريق منهم : إن الحيوان ظهر بعد الجماد وإن الإنسان ظهر بعد الحيوان ، فالمادة إذن أسبق من العقل فى الترتيب

ويقول فريق آخر : إن فاقد الشيء لا يعطيه ، وإن العقل أشرف من المادة ، فهى لا تخلقه وهو أولى بأن يخلقها ويسبقها فى الوجود على الأقل سبق العلة للمعلول

أكلام فارغ هذا ؟

أهو كلام لا يعنينا ولا يدخل فى حسابنا ؟

كلا ... لأن التفسير المادى للتاريخ مذهب عملى فى الحياة الاجتماعية قام على القول بأن المادة هى القديمة وأن العقل هو الحديث ، وتوطدت عليه دعوة « كارل ماركس » التى فعلت بعد ذلك الأفاعيل فى مجرى السياسة العالمية وفى مجرى العلاقة بين الطبقات ، ولو استطاع فيلسوف أن يقنع الإمام وأتباعه بقدم العقل وحدوث المادة لتغير تاريخ الكرة الأرضية وتغيرت نظرات الملايين من الناس إلى الحياة

فهذه الصناعة التى تسمى بالفلسفة لا تغادر الطبيعة كل المغادرة ولا تنطلق منها إلى ما وراءها بغير رجعة إلينا فى حياة الغذاء والكساء

وإهمال هذه الصناعة غير مأمون على مهمليها ، لأن الفرق بين الفلسفة الصالحة والفلسفة الطالحة قد يكون فرقاً بين ثورة واستقرار ،

أو بين حرب وسلام ، أو بين هداية وضلال

ونحن حين نذيع البشارة بقيام الفلسفة فى مصر لا نذيع بشارة فى سماوات الخيال ، ولا ننسى الذين يعيشون ويعلمون أنهم يعيشون لأنهم يأكلون ويشربون ويلبسون ، أو لأنهم لا يطلبون من هذا الوجود مطلباً غير المأكل والمشرب والملبس

* * *

نعم فى مصر فلسفة

نعم وفيها عناية بالكتب الفلسفية

وآية ذلك أننا تلقينا فى عام واحد نحو عشرين رسالة فى المباحث الفلسفية وما إليها ، وعلمنا أنها تقرأ فى بيئة المتعلمين الذين يؤدون الامتحان المدرسى وتقرأ فى بيئة الطلمين الذين يقنعون بالاطلاع

من هذه الرسائل القيمة رسالة للأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق باشا عن فيلسوف العرب والمعلم الثانى والشاعر الحكيم وابن الهيثم وابن تيمية ، فيها أوفى تعريف ينال بمثل هذا الإيجاز

ومنها كتابا الأسرة والمجتمع والمسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ، وقد نوهنا بالكتاب الأول فى (الرسالة) وثانيهما فى طبقة الأول من حيث الإفادة والتحقيق

ومنها كتب ثلاثة فى « الفلسفة الرواقية » وسيرة الإمام محمد عبده ، وشخصيات ومذاهب فلسفية للدكتور عثمان أمين ، وأولها أوفى كتاب بالعربية فى موضوعه ، ويضارع خيرة الكتب الأوربية فى هذا الموضوع ، وقد أنصف الأستاذ الإمام فى سيرته الوجيزة ، وصحح أوهاماً شائعة فى الشخصيات والمذاهب الفلسفية ، وأغنى المتطلعين إلى هذه البحوث عن كثير من المراجعات

ومنها التعليم عند القابسى للدكتور الأهوانى ، وهو بيان لفن من الفنون كان المظنون أن العرب أهملوه ، فألم الدكتور بتاريخه وشرح آراء القابسى فيه

ومنها كتاب التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ، وكتاب الشعرانى إمام التصوف فى عصره ، وكتاب الأحلام للدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول ، وكلها نمط واحد فى حسن التقسيم وتقرير المعلومات وفطانة التعقيب

وظهرت إلى جانب هذه الكتب القيمة والرسائل المسعفة مجلة مقصورة على علم النفس للأستاذين يوسف مراد ومصطفى زيور تعنى بأشرف البحوث المتخيرة فى موضوعها ، وتشغل مكاناً لم يكن بالجليل أن يفرغ بعد الآن فى اللغة العربية

ويجب أن نقرر هنا أننا أحصينا ما رأيناه ، ولم نحص كل ما صدر للجمعية الفلسفية أو لغيرها من دراسات الفلسفة والتصوف وعلم النفس وما إليها

وبعض هذا يكفل للمباحث الفلسفية حيزاً موقراً فى هذا البلد ويجيز لنا أن نقول : إن فى مصر فلسفة ، وإنها بشارة تذاع ، لأنها بعض الأدلة على انتقال المصريين من عالم الضرورة إلى عالم الحرية والاختيار ، ومن أسر الحاجة التى لا تخلو من عبودية إلى شرف الكماليات التى لا تخلو من عزة وارتفاع

وقد وددنا لو استطعنا أن نبسط القول فى كل كتاب من هذه المجموعة النفيسة ، لولا أنها حرب خاطفة تقابل بإشارات خاطفة ، وإذا بلغ بأصحاب الفلسفة أن يشكو الناس سرعتهم ونشاطهم ، فتلك علامة خير وحجة على من يحسبون الفلسفة قرينة للدعة والركون إلى السكون

لكن نشاطهم هنا يغرينى باقتراح عليهم أوحاه إلىّ حديث مع أستاذ الجيل وكاشف أرسطو للعرب فى هذا الزمان العلامة الكبير أحمد لطفى السيد باشا مد الله فى عمره وأدام به النفع والهداية

فالأستاذ قد ترجم لأرسطو كتاب الأخلاق وكتاب الكون والفساد وكتاب السياسة ، وبنوى أن يترجم له كتاب الروح أو كتاب ما بعد الطبيعة

وما ترجمه الأستاذ الجليل هو أصح ما نقل عن المعلم الأول إلى اللغة العربية ، وقرينٌ فى الصحة والوضوح لأفضل الترجمات فى اللغات الأوربية

ولكن لا يزال الغلط البالغ محيطاً بالمنقولات الأخرى عن أرسطو منذ تصدى له النساطرة والإسرائيليون الأندلسيون ، لأن الجلة من أولئك المترجمين كانوا يجهلون معانى الفلسفة ويجهلون دقائق العربية ، ولا ندرى الآن مبلغ علمهم باليونانية ، وليس أولى بتصحيح أغلاطهم من عصرنا هذا الذى تيسرت فيه مراجع الفلسفة اليونانية وتيسرت فيه العناية بها والترجمة عنها

وقد خطر لى أن ترجمة أرسطو وأفلاطون عسيرة على الفرد

إذا استقل بها ، ميسرة للجماعة إذا تعاونت عليها ، فماذا على شباننا الفضلاء المتفرغين للفلسفة بأنواعها لو تقاسموا بينهم آثار الحكيمين جميعاً ففرغوا منها في عام واحد أو عامين ؟

إن في أرسطو وأفلاطون لما يصلح العقول ويقوّم التفكير حتى في هذا الزمان ، وما تباعد فيه الخلف بين آرائهما وآراء عصرنا حقيق بالدراسة كتلك الآراء الخالدة التي لم يطرأ عليها الخلف والتغيير، لأن دراسته دراسة لعقل الإنسان ، وهو موضوع الدراسة في كل أوان

وعمل الجمعية الفلسفية ناقص إذا بقيت اللغة العربية بين لغات الحضارة خلواً من ترجمة صحيحة للحكيمين الخالدين ، وظننا بها أنها قادرة على التمام

وطلب التمام على من يستطيعه فرض عين في لغة الحكماء ، وهي هنا قريبة من لغة المتصوفة ولغة الفقهاء

عباس محمود العقاد

تطور الاتجاه نحو وحدة عالمية

[وهي محاضرة ألقاها معاليه بقاعة يورت التذكارية]

لصاحب المعالي محمد حافظ رمضان باشا

دعاني قسم الخدمة العامة إلى أن أفتتح موسمه الثقافي هذا العام عن تطور الاتجاه نحو وحدة عالمية . وإني لأشكر للقائمين بالأمر فيه هذه الدعوة ؛ وإني أتقبل بالسرور أن أساهم بنصيب في نشر الثقافة العامة في مصر . ومما يسعدني أن المعاهد العلمية والدوائر السياسية في هذه الأيام تبدي اهتماماً بدراسة مصير العالم من حيث ارتباط بعضه ببعض ، فإن الله قد بعث أرواحنا في هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمرونة وتزداد نوراً بالتضامن، وقد وضع في قلوبنا بذور السعادة فلا محل لأن ننزعها بالحرمان والتفكك بل يجب أن ندعو دائماً إلى الحقائق العلمية .

إن السلام العام لا يتم بترك الأمور تجري في طريقها ، فحوادث العالم وتاريخها وطبيعتها كلها تحملنا على القول بأن نار الحروب لن تخمد ، ولكن جهود التخريب يمكن مغالبتها بالعمل على تحويل وجهة الحوادث ، وهذه المهمة تقع اليوم على عاتق الشعوب أكثر من غيرها ، وهو أمر يتوقف على إرادتها الإجماعية . وهذه الإرادة لابد أن توجه مجرى الحوادث إلى طريق وحدة عالمية للأمن والسلام

ولا ريب أن التطور الذي نشاهده اليوم نحو هذه الوحدة ليس وليد هذه الحرب بل قد بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر عندما اخترعت الآلات الصناعية وانتشرت في مناطق الفحم والحديد فتوجهت جهود الشعوب إلى ميدان الصناعة والاقتصاد وبدأ العالم يتجه نحو وحدة اقتصادية ؛ وإذا كان أساطين السياسة قد جهلوا أو تجاهلوا هذا التطور منذ بدايته مدفوعين بأغراض سياسية فإنهم اليوم يجهرون به ويعملون لتنظيم العالم تبعاً لمقتضياته .

وإذا كان مفهوماً أيها السادة فيما مضى مع تباعد الأمم وعزلتها أن يقوم للوطنية المبنية على وحدة الجنس واللغة وحدها قائمة فقد أصبحت حال شعوب العالم اليوم مرتبطاً بعضها ببعض ، وأصبح القول بغير ذلك ضرباً من الأثرة يرضى به كبار الساسة خيلاءهم . ولا عجب فالعالم يتطور قطعاً نحو وحدة عالمية. إذ قد ارتبطت أجزاؤه كلها برباط وثيق وأصبح ما يصيب أدناه يشعر به أقصاه شعوراً ليس مبناه العاطفة وحدها وإنما أساسه المنفعة . فما أحرى الناس أن يكونوا جميعاً في الإنسانية إخواناً يتميز الصالح بعلمه وعمله لا القوي ببطشه وجبروته ؛ وهي كلمة قالها الله تعالى في كتابه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وهكذا قالها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ولم يجعل للعرب فضلاً على من عداهم من الأمم بل سوى بين الجميع وجعل الأفضلية للتقوى وللعمل الصالح المفيد سادتي :

قبل أن أتحدث إليكم عن أثر الواقع في تطور العالم اليوم نحو وحدة عالمية يجدر بي أن أضع أمام أنظاركم صورة من هذا التطور في القرن التاسع عشر فأروي لكم ما تحدث به مستر كارول رايت الذي كان مديراً لمكتب العمل بالولايات المتحدة في أحد تقاريره من أنه كان يوجد صانع مسامير يدعى يوناتام في ولاية مساتشوسيت وقد رأى في منامه في ليلة من ليالي عام ١٨١٣ شبحاً يطلب إليه أن يرفع أجور عماله بما يوازي النصف وأن يخفض ثمن مبيعاته بما يوازي الثلث تقريباً ، فعجب يوناتام قائلاً إنه بهذا يسير نحو إفلاس محقق ؛ ولكن الشبح أخبره لن أرباحه ستتضاعف أضعافاً

مضاعفة. واستيقظ يوناتام من رؤياه متزجاً وهو يعجب لهذا الأمر. ولم يمض وقت طويل حتى قدم إليه بعض المهندسين بآلة صناعية تدار بالبخار لعمل المسامير؛ وما استخدمها يوناتام حتى تضاعف إنتاجه ونقصت أثمانه واتسعت تجارته وكثرت أرباحه وأصبح هو وأحفاده من أغنياء أمريكا .

يؤكد المستر كارول أيضاً أن هذه الرؤيا لم تكن خيالا وإنما كانت حقيقة واقعة، إذ أنه أجرى تحقيقاً دعمه بالأسانيد والأرقام فيما أنتجته الآلة البخارية التي استخدمها يوناتام من نتائج يستخلص منها أنه مع تضاعف أجور العمال قد تضاعفت الأرباح وتحقق للمستهلكين وفر كبير في أثمان المبيعات . وكذلك تحققت رؤيا يوناتام التي كانت في ظاهرها حلماً من الأحلام .

أيها السادة : .

إن اختراع الآلة الصناعية يدل على مبلغ التطور الذي حدث للعالم ويؤيد أن صاحب العمل والعامل والمستهلك جعلهم جميعاً يستفيدون وكانوا قبل أن توجد خصوماً لا ينتفع أحدهم إلا على حساب الآخرين .

هذا هو حادث يوناتام عندما استعمل الآلة الصناعية، وتذكرون بجانبه ما كان من أمر الزعيم غاندي في الهند إذ دعا منذ سنوات إلى العودة لاستعمال مغزل القرون الوسطى فلم يصب طريقته النجاح في مزاحمة الآلة الصناعية، فاضطر الهنود بعدها إلى استخدام الآلات للغزل والنسج . ذلك لأن الحياة في هذا العصر غيرها في عهد القرون الوسطى، ولأن الآلات الصناعية حلت محل الأعمال اليدوية بسبب سرعة إنتاجها وقلة تكاليفها :

ويظهر من هذين الحادثين أن الآلة الصناعية جعلت من حلم يوناتام حقيقة ومن حقيقة غاندي حلماً لم يتحقق، والواقع أنه منذ اخترعت الآلة وسخرت لخدمة الانسان أحدثت انقلابا كبيراً في حياة الشعوب والأمم اقتصادياً واجتماعياً بل وسياسياً . وإذا كان هذا الانقلاب لم يتخذ شكلا ظاهراً منذ قرن كما هو واضح لنا الآن فذلك إلا لأن هذا التطور لم يحدث طفرة، ولأن ارتباط الشعوب اقتصادياً كان متمشياً مع انتشار الآلات وتحسينها تدريجياً وتخصص كل بلد بما اعتاد صناعته .

فإليكم ما حدث في انجلترا مثلا عندما استخدم رجال الصناعة آلة الغزل التي اخترعها هارجريفز « Hargreaves » في منتصف القرن الثامن عشر فإنهم لم يفكروا أصلا في غير أرباحهم ولم يخطر ببالهم أنهم — سيحدثون انقلاباً عظيماً في حياة الأفراد — وفي علاقات الدول إذ أن الواقع أن انتشار صناعة الأقمشة الصوفية والأجواخ في انجلترا فتحت أمام نشاطها آفاقا جديدة فأوجدت لها أسواقا عالمية جعلت مقادير الصوف الخام — من الخراف الإنجليزية غير كافية لسد حاجات تلك الأسواق الكبيرة فولت الصناعة وجهها شطر أستراليا والأرجنتين وغيرها لتستورد منها الأصواف فانتعشت بهذا تربية الأغنام في تلك البلاد النائية وأصبحت في انجلترا قاصرة على تحسين النسل، وبهذا اختصت انجلترا بالغزل والنسج، واختصت أستراليا والأرجنتين بتربية المواشي حتى قيل إن أجر جز الصوف في أستراليا يوازي ثمنه، وأن قطعة القماش من الجوخ المصنوع في انجلترا من صوف استراليا أقل ثمناً في سدني باستراليا من مثلها المصنوعة في استراليا نفسها؛ ذلك لأن كلا البلدين أصبح مع مرور الزمن إخصائياً في عمله لا يستطيع الآخر أن يزاحمه فيه .

وكان الحال كذلك في الأقمشة القطنية، فمنذ عرف أن الناخ الرطب في منشستر صالح لغزل ونسج الموسلين ونحن نشهد إقامة الأنوال والمناسج في انجلترا وأمريكا وغيرها كما نشهد زراعة القطن في المساحات الواسعة في دلتا الميسيسبي « Mississipi » ودلتا النيل وغيرها .

وكل ما قيل بصدد الصوف والقطن يقال بالنسبة لباقي المصنوعات من آلات حتى المواد الغذائية وغيرها .

هنا ولا ريب أن نقل المواد الأولية من الأقطار البعيدة إلى الأقطار الصناعية ثم توزيعها مصنوعة إلى البلاد الأخرى يقتضي تحسين طرق المواصلات البحرية والبرية، ولهذا نرى منذ منتصف القرن التاسع عشر بناء السفن البخارية فضلا عن مد خطوط السكك الحديدية والخطوط التلغرافية كما ترون العمل على تحسين طرق المواصلات الجوية والوصول بها إلى أوجها — كل هذا جعل الكرة الأرضية معروفة اليوم بسكانها ومعادنها وحاصلاتها؛ فاذا بسطنا خريطة جغرافية رسمت قبل اختراع الآلات وجدنا مساحات واسعة مؤشرا عليها بما يدل على أنها مجهولة لنا كحوض الأمازون

ووسط إفريقيا واستراليا نفسها ، أما اليوم فقد اكتشفت الارض جميع ما تملك وعمل على استغلال كل ما بها بل وأصبحت بلاد العالم مرتبطا بعضها ببعض ويتأثر بعض الأمكنة بما يحدث في الأخرى

فاذا ما ظهرت دودة القطن في مصر ، أو نزل الصقيع على محصول بأمريكا ، أو حدث إضراب العمال في المصانع الانجليزية هبطت أسهم شركات النسيج أو نقصت أثمان الصوف تبعاً لهذا .

كذلك إذا ما حدث اضطراب في وسائل النقل اضطربت حياة الشعوب والأمم ، فقد رأينا كندا في الحرب الماضية تستخدم القمح كوقود لأفرانها بينما كانت شعوب أوروبا لا تجد الخبز بغير البطاقات بشق الأنفس .

والخلاصة من هذا كله أن التطور الصناعي خلق أسواقا عالمية سواء لأجل استيراد المواد الأولية أو لتصريف المنتجات الصناعية وأن هذه الحالة تقتضي طبعا المزاحمة الأجنبية فلا يتسنى بسبب هذا الترابط الاقتصادي لأية أمة أن تستهلك وحدها كل محصولاتها أو كل منتجاتها فهي مضطرة أن تبحث عن أسواق للفائض عن حاجاتها وتتخذ لهذا الغرض إجراءات داخلية تأخذ شكل الحواجز الجمركية ، وإجراءات خارجية تأخذ شكل المعاهدات التجارية في صيغة « أولى الدول بالمراعاة » فإذا ما تصادمت مصلحة دولتين في كل هذه الميادين قامت بينهما حرب تجر وراءها بسبب الترابط الاقتصادي العالمي حرباً عالمية .

ولقد شهدنا في مدى جيل واحد حربين عالميتين وعرفنا الفروق بين هذا النوع من الحرب والحروب الأخرى ، ففي العهود السابقة كانت الحرب موضعية تقع بين بلدين أو أكثر ولكنها لم تكن لتتعدى الجيوش المحاربة ، وكانت تبتدىء وتنتهي دون أن يشعر باقي الأهالي المدنيين الآمنين بأهوالها ، بل كانت أشبه شيء بعملية جراحية تلتئم جروحها سريعاً في موضعها لتعود الحياة العادية كما كانت من قبل .

أما الحروب العالمية اليوم فهي حروب تجند من أجلها الشعوب فيرسل الشبان إلى ميادين القتال ، والشيوخ إلى مصانع الأسلحة والعتاد ، والنساء إلى المزارع والمستشفيات ؛ كذلك تجمع من أجلها القوات الزراعية والصناعية والمدنية والمالية ؛ وفوق ذلك فان ويلاتها وأهوالها تمتد من ساحة الوغى إلى ما وراء خطوط القتال فتخرب المصانع وتهدم المساكن وتدمر الطرق والجسور وتغرق البواخر وتقطع المواصلات البرية والبحرية كما تزهق أرواح الأبرياء من النساء والأطفال ثم تعقبها بعد انتهائها الثورات السياسية والأزمات الاقتصادية .

سادسا :

لقد احتمل العالم هذه الويلات زهاء أربع سنوات في حرب سنة ١٩١٤ وست سنوات في الحرب الأخيرة ؛ فاذا كانت المدنية الحاضرة لم تندثر معالمها وإذا صح أن يكون ذلك دليلا على مالتلك المدنية الصناعية من قوة المقاومة إزاء هذا التدمير والتخريب فقد صح كذلك وجود عيوب في نظام العالم الحاضر الذي لم يستطع أن يتفادى في مدى جيل واحد حربين عالميتين من هذا النوع في التدمير والتخريب التي لا مثيل له في تاريخ الانسانية . وفي يقيننا أن هذه الحال لن تتغير وأن احتكاك الدول لن يتبدل مالم نعمل على أن ندخل في نظام حياتنا العامة وعلاقاتنا الاقتصادية ما يضمن لنا الاستقرار والاطمئنان .

ولا ريب أن كل شيء في هذا الوجود يولد ثم ينمو ويشب ثم يكبر ويهرم فيموت ؛ لذلك كان نظام الحكم وعلاقة الدول بعضها من أكثر الأمور تطوراً لا في المظاهر الشكلية بل في جوهر الأمور وكيانها ؛ فان الخمسة والعشرين قرناً الماضية من تاريخ الإنسانية تشهد بأن نظام العالم قد انتقل من حكم أقوى العائلات إلى نظام الجمهوريات اليونانية القديمة ، إلى محاولة إيجاد الامبراطوريات العالمية في عهد الإسكندر والدولة الرومانية ، إلى نظام الاقطاع في القرون الوسطى ، إلى نظام الملكية المطلقة ، إلى الديموقراطية الحاضرة .

إن هذا التطور الدائم في نظام الحكم جاء تبعاً لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الأزمان الماضية .

كما لاريب عندنا في أن العالم في وقتنا الحاضر وهو تحت تأثير الاكتشافات العلمية واختراع الآلات الصناعية وإتقان طرق المواصلات بين أجزاء العالم قد تطور تطوراً خطيراً من شأنه أن جعل جميع الشعوب والأمم التي وصلت إلى درجة ما من المدنية مرتبطة بعضها ارتباطاً اقتصادياً فلا يسع شعباً من الشعوب أن يكتفي وحده بكافة حاجاته من المأكل والملبس وغيرها بل هو في حاجة إلى تصدير الفائض ، وبجانب هذا فان العلاقات بين الدول كانت تتطور حتى أخذت شكل القانون الدولي الذي كان يتطور هو كذلك تبعاً لمقتضيات الظروف بعد كل نزاع .

(البقية في العدد القادم) محمد حافظ رمضان

حول قضية فلسطين

أيها العرب . . .

استيقظوا واحذروا

الأستاذ سيد قطب

إن قضية العرب فى فلسطين تتأخر ولا تتقدم !

ويسوءنى أن أكون نذير سوء ؛ ولكن لأن نواجه الحقائق الواقعة ، خير من أن نستنيم للأحلام . .

حينما صدر الكتاب الأبيض الإنجليزى أعلن كل عربى مخلص أنه لا يرضى عن هذا الكتاب ، وأنه صدمة لآمال العرب بما تضمنه من استمرار الهجرة الصهيونية فترة أخرى ، وإن تكن موقوتة ، تصبح بعدها الهجرة مرهونة بمشيئة العرب ، إن شاءوا أمضوها ، وإن شاءوا لم يسمحوا من بعد بها .

واليوم يتمسك العرب بسياسة الكتاب الأبيض ، ويدعون انجلترا للمحافظة عليها ، وهم يرون فى تصريح « بيفن » الأخير نقضاً لها ، واستمراراً فى الهجرة إلى غير موعد !

إذن قضية العرب فى فلسطين تتأخر ولا تتقدم !

تتأخر ، فيصبح الكتاب الأبيض الذى كان بالأمس موضع شكوى العرب ، هو موضع رجائهم . وينقلب الحد الأدنى — أو ما هو دونه — حداً أعلى لآمال العرب أو الناطقين باسمهم فى هذه الأيام .

ألا إنها المحنة التى يجب أن تتفتح عليها الأبصار !

* * *

فلننظر فيم كان هذا الانقلاب ؟

صدر الكتاب الأبيض بالأمس ترضية للعرب الثائرين الساخطين ، فرفضوه واستصغروه . فلما سرى البرد إلى دمائهم الفائرة ، ودب الخدر إلى أعصابهم الثائرة ، رضوا عن الكتاب الأبيض ، ووقفوا ينتظرون . . .

وألقى الكتاب الأبيض اليوم ترضية للصهيونيين الثائرين المتمردين ، وهم يرفضون إلغاءه ويستصغرون اقتراحات « بيفن » الأخيرة ، لأن العرب لا يزالون فى خدر لذيذ يستنيمون إليه . . ذلك أنهم يثقون بالضمير البريطانى !!!

ومن هنا نستطيع أن نعرف : متى يسترضينا الإنجليز ، ومتى يسترضون الصهيونيين ؟!

فلننظر إلام تؤدى اقتراحات « بيفن » الأخيرة ؟

ستفتح أبواب الهجرة الصهيونية بعد إغلاقها ، وستؤلف لجنة تحقيق — لم تؤلف بعد — لتنظر فى قضية فلسطين وقضية اليهود عامة . وما دامت هذه اللجنة لم تنته من تحقيقاتها الواسعة المدى فسيظل سيل الهجرة يتدفق على فلسطين !

أهى سنة ؟ أم سنتان ؟ أم خمس سنوات ؟ أم هى التعلة الناجعة لاستمرار الهجرة إلى غير ميعاد ؟ فإن ضجر العرب يومذاك أو تبرموا كانوا قوماً عجلين ، لا يريدون أن تعمل اللجنة فى جو هادئ ، ولا يمكنون للحقائق فى الظهور !

ثم يوجد من العرب من يرى فى مثل هذه الاقتراحات أساساً صالحاً لقضية فلسطين .

ألا إنها المحنة التى يجب أن تتفتح عليها الأبصار !

* * *

للانجليز أن يهللوا لاقتراحات « بيفن » الأخيرة . فهى انتصار للسياسة الإنجليزية التقليدية ... انتصار لها من شتى الوجوه :

١ — الانتصار الأول جر أمريكا لاحتمال التبعات فى فلسطين دون أن يكون لها شىء من المغانم ! وتصور هذا بأنه استماع لصوت أمريكا فى حل القضية المعقدة التى استطاع الصهيونيون الأثرياء أن يحركوا لها « ترومان » وسواه . فإذا انتهوا إلى حل فلن تستطيع أمريكا رفضه وهى الشريكة فيه !

٢ — والانتصار الثانى تثبيت صفة الانتداب الانجليزى على فلسطين باسم جديد هو « الوصاية » باعتراف من الولايات المتحدة فى هذه المرة . فلقد كان الانتداب من « عصبة الأمم » التى اعترلتها الولايات المتحدة وكان المرجو هو استقلال فلسطين !

٣ — والانتصار الثالث هو « التأجيل » طابع السياسة الإنجليزية الأصيل . فالتأجيل وترك المعقدة للزمن يحلها الحل المناسب هو الطابع الدائم للسياسة الإنجليزية ، وبخاصة مع الأمم

الصغيرة الثائرة لحقوقها المهضومة ، - والزمن دائماً في صف الأقوياء لا الضعفاء -- وهذه الاقتراحات الأخيرة تضمن للسياسة التقليدية أقصى مدى ، لأنها في أيدي لجنة تحقيق لا يجوز أن يستعجلها أحد عن استجلاء الحقائق ! وإلا كان متعنتاً لا يريد للحقائق الظهور !

٤ -- والانتصار الرابع هو التوفيق بين سياسة الأحزاب الإنجليزية كلها في علاج قضية خارجية . والانجليز يبتهجون لمثل هذا التوفيق لأنهم جميعاً انجليز !

للانجليز أن يهللوا لهذه التصريحات الأخيرة في صحفهم عامة ، ولكن ليس للعرب أن يخدعوا بهذا التهليل ، لأن لهم في القضية موقفاً آخر يستدعى التفكير المستقل عند النظر في الأمور . وقضية فلسطين قضية عادلة لا يضيرنا فيها التحقيق ؛ ولكن متى كانت عدالة القضايا الوطنية كافية لتقرير الحق في الأمور ؟

* * *

والآن ... ما هو طريقنا المأمون ؟

طريقنا ألا نثق بضمير أحد ، فما لأحد في العالم الغربي ضمير ! لقد برهنت هذه الحضارة الغربية على إفلاس في الضمير لا عهد للعالم به في جميع الحضارات السابقة .

وقبل أن نثق بالضمير الأوربي أو الأمريكي ، يجب أن نتذكر لفرنسا حوادث سوريا ولبنان -- وهي قريبة لم تغب عن العيان -- ويجب أن نذكر لانجلترا يوم ٤ فبراير الشنيع ؛ ثم موقفها في أندونسيا -- وهو حاضر الآن -- ويجب أن نذكر لأمريكا نداء « ترومان » ونصرته للصهيونيين !

طريقنا ألا نثق بضمير أحد ، وألا نستنيم لدعوة ما من دعوات الثقة بهذا الضمير .

وطريقنا ألا نستنيم لمخدرات التأجيل إلا إذا وقفت الهجرة وقفاً تاماً حتى يتم التحقيق . فلقد رأينا أن الزمن ليس في صالحنا . وإذا شاء أحد أن يستنيم فليتذكر متى صدر الكتاب الأبيض بوقف الهجرة الصهيونية في موعد محدد ، ولماذا صدر هذا الكتاب . ثم ليتذكر متى ألغى الكتاب الأبيض وأبيحت الهجرة من جديد . ولماذا كان هذا الانقلاب ؟

صدر الكتاب الأبيض ترضية للعرب الساخطين الثائرين ، وصدر تصريح بيفن الأخير ترضية لليهود المتدين الإرهابيين !

وطريقنا أن يرد زعماء الأمة العربية ما بأيديهم من السلطة إلى هذه الأمة نفسها لترى رأيها في الموقف الجديد ، فهي صاحبة الأمر قبل الزعماء أجمعين .

ولأطلقها صيحة صريحة قاسية :

أيتها الأمة العربية : احذري حتى رجال السياسة من أبنائك . لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك ، ولكن لأنهم هم قد يخانون ويخدعون ! ولأن كراسي الحكم قد تكون في بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة وتخدر فيه الدماء الفائرة!

أيتها الأمة العربية : خذى الأمر في يديك من جديد ، فإني أرى الموقف يستدعى جهود الشعوب نفسها لا جهود الزعماء منفردين .

وما يخدعك أيتها الأمة -- في كل قضاياك الوطنية لا في قضية فلسطين وحدها -- إلا مخدوع يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود !!!

سيد قطب

من محاسن التشريع الاسلامي

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

— ٦ —

اليسر ورفع الحرج

من أبين خصائص التشريع الإسلامي، وأبرز محاسنه ومزاياه يسر أحكامه، وسهولة تكاليفه، ومسايرة أوامره ونواهيه للطبيعة البشرية، والفطرة الإنسانية التي لم يمسها دنس ولا رجس، ليس في ذلك شيء يعنتها، ولا حكم يشق عليها؛ ولا غرو، فهي شريعة الرحمن الرحيم، وتنزيل من الخبير العليم، ووحي وهداية من العزيز الحكيم، وتفصيل وبيان من رسوله الصادق الأمين، الذي هو بالمؤمنين رءوف رحيم.

والآيات القرآنية في ذلك المعنى مستفيضة: قال الله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وقال: «يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر»، ولما شرع الله — جلت حكمته — التيمم عند عدم وجود الماء أشار إلى حكمة ذلك التيسير والتخفيف في قوله في سورة المائدة: «وإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم، لعلكم تشكرون»، كذلك قال الله — جل شأنه — في سورة الحج: «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج».

ومثل ذلك الأحاديث، فإنها جمة متضافرة على هذا المعنى، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده: «أحب الدين إلى الله الحنيفية»، وفي شمائله صلى الله عليه وسلم: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما».

وحسبك في ثبوت هذه المزية، ورعاية الإسلام لها، وانبناء كثير من الأحكام عليها أن عدت أساسا من أسس التشريع الاسلامي، وقاعدة من قواعده، التي عول عليها فقهاء الاسلام، وعلماء تشريعه، والقائمون بالاجتهاد فيه، فراعوا اليسر، ورفع الحرج فيما استنبطوه من الأحكام، ووضعوا تلك القاعدة التشريعية التي جمعت بين وجازة اللفظ، وإصابة المعنى، واستحصاد الرأي، وهي قولهم: «المشقة تجلب التيسير».

بتلك القاعدة شرعت أحكام كثيرة، روعيت فيها طبيعة الانسان، وقوة احتماله، وما يناسب غرائزه وجبلته وقدرته: فلم تجب الزكاة إلا إذا بلغ المال نصابا، ولم يجب إلا جزء يسير منه كربع العشر، وكره أو حرم الطلاق والمرأة حائض، حتى لا تطول عليها العدة، ووجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة، رفعا للحرج، وفرض الحج في العمر مرة: نقل العلامة أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» أن عليا رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله كتب عليكم الحج، فقام رجل من بني أسد يقال له عكاشة بن محصن، وقيل هو سراقة بن مالك، فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى أعاد مسألته ثلاث مرات، فقال رسول الله: ويحك! وما يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم، لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه[1]». وعلى هذه القاعدة انبنت جميع رخص الشرع وتخفيفاته. وللكثرة الكثيرة المتفرعة عليها من أحكام الفقه ومسائله قيل إنه يرجع إليها غالب أبواب الفقه.

وقد ذكر العلماء للتخفيف أسبابا، منها:

١ — المرض، ومما يتعلق به جواز التيمم للمكلف عند الخوف على نفسه، والقعود في صلاة الفرض، والفطر في رمضان، والإنابة في الحج بشروطه، وإباحة محظورات الإحرام في الحج مع الفدية، وإباحة النظر إلى العورة للطبيب.

٢ — السفر، ومما يتعلق به قصر الصلاة الرباعية، والفطر في رمضان، وترك الجمعة والعيدين.

٣ — العسر وعموم البلوى: كوجوب الصوم شهراً في

(١) الجزء الثاني من تفسير العلامة أبي السعود طبعة سنة ١٩٢٨.

رأى جديد فى

حمـــاد الراوية (*)

للأستاذ السيد يعقوب بكر

الرواية فى عصر حماد :

لن نتحدث هنا عن الرواية فى عصر حماد من حيث هى رواية مستقلة لها مظاهرها الخاصة، وإنما سنتحدث عنها من حيث هى طور من أطوار الرواية العربية . ومعنى هذا أننا لن نفصل بينها وبين أطوار الرواية العربية قبلها ، وإنما سنتحدث عنها وعن تلك الأطوار معاً . ونحن نقصد من هنا إلى أن نفهم هذه الرواية على وجهها ، وأن نتفهم المقدمات التى أدت إليها .

بدأ العرب يدونون شعرهم فى أخريات القرن الأول للهجرة ؛ وليس معنى هذا أنهم كانوا يجهلون الكتابة قبل هذا التاريخ ، فقد كانت الكتابة معروفة لديهم قبل الاسلام بزمن طويل تدلنا على هذا تلك (الخربشات) Graffiti التى تسمى خطأ بالثمودية واللحيانية ، وتلك (الخربشات) التى عثر عليها فى الصفا بجوار دمشق ؛ وهى كلها مكتوبة بخط ينتمى إلى الخط العربى الجنوبى . ثم هناك نقش النمارا بسوريا ، الذى نجده على قبر امرىء القيس بن عمرو اللخمى ، والذى هو مكتوب بالخط النبطى المشتق من الأرامى ؛ وهو يرجع إلى سنة ٣٢٨ م . تدلنا هذه الآثار كلها على أن الكتابة كانت معروفة لدى العرب قبل الاسلام . لكن هذه الكتابة لم تكن صالحة لأن تدون بها الأشعار ؛ فقد كانت لا تعبر عن الحركات الممدودة ، كما كانت خالية من الإعجام . إنما أدخل الاعجام على الكتابة فى أيام الحجاج فانتقلت به الأبجدية من ١٥ حرفاً إلى ٢٨ حرفا ؛ كما أن نظام

(*) راجع فى هذا الموضوع : بروكلمان (Gesch der arab. Litteratur ج ١ ص ١٦ — ١٧ ، وتكملة هذا الجزء ص ٣١ — ٣٤) ونيكلسون (Nicholson A Literary Hiotsry of the Arabs ، ص ١٣١—١٣٤) وتشارلز ليال (Translations of Ancient Arabien Poetry ، المقدمة ص ٣٢ — ٤١)

السنة ، والحج فى العمر مرة ، ووجوب ربع العشر فقط فى الزكاة تيسيراً — على ما سبق ذكره — وأكل الولى أو الوصى من مال اليتيم بقدر أجرة عمله ، وإباحة النظر للمرأة عند الخطبة ، ومن ذلك مشروعية الطلاق لما فى البقاء على الزوجية من المشقة والعنت عند تنافر الأخلاق ، وتعذر المعاشرة بالمعروف ، ومشروعية الوصية عند الموت ليتدارك الإنسان ما فاته من البر فى حال حياته ، ونفذت فى الثلث دون مازاد عليه دفعاً لضرر الورثة ، حتى إذا لم يكن هناك وارث نفذت ولو كانت بكل المال . ومن التيسير فى عموم البلوى إسقاط إثم الخطأ عن المجتهدين ، والاكتفاء منهم بالظن ، إذ لو كلفوا الأخذ باليقين لشق عليهم الوصول إليه .

٤ — النقص ، وهو نوع من المشقة ، لأن النفس مجبولة على حب الكمال فناسب التخفيف فى التكليف . ومما ترتب على ذلك عدم تكليف المجنون والصبى ، وعدم تكليف المرأة بعض ما يجب على الرجل ، كالجهاد إذا لم يكن النفير عاماً (١) .

وفى معنى القاعدة المتقدمة قول الشافعى : « إن الأمر إذا ضاق اتسع » ، وقول أئمة الحنفية : التسهيل يراعى فى مواضع الضرورة والبلوى العامة .

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم .

هذا التيسير فى التشريع ، وهذه الرخص التى أتت بها الشريعة تخفيفاً على العباد فى مواطن الحرج والمشقة — إحدى مزايا الإسلام وتشريعه مما يعد آية على أنه جاء رحمة للعالمين .

— ٧ —

مراعاة مطالب الجسد والروح

كذلك من مزايا التشريع الإسلامى توفيته بمطالب الجسد والروح معاً فى حدود الاعتدال ، فهو وسط جامع لحقوق الجسد والروح ، ومصالح الدنيا والآخرة ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

فالإسلام بتعاليمه ، ووصاياه وتشريعه — جعل المسلمين وسطا بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية ، والمنافع المادية ، وبين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية ، وتعذيب الجسد ، وإذلال النفس (١) ، كما يتجلى ذلك مما أسلفنا ذكره وبيانه فى المميزين الرابع والسادس ، وتلك مزية أخرى من مزايا الإسلام وتشريعه ، تشهد له بمراعاته الفطرة الإنسانية السليمة ، وبتحقيقه مصالح العباد ، وتهيئة أسباب السعادة لهم فى الدنيا والآخرة .

(يتبع) حسن أحمد الخطيب

(١) الوحى المحمدى ص ١٠٢ من الطبعة الثانية

الحركات لم يستقم إلا بعد أيام الحجاج بزمن طويل .

قلنا إن الكتابة العربية قبل الاسلام لم تكن صالحة لأن تدون بها الأشعار . ولكننا نجد الأستاذ بروكلمان (تكملة الجزء الأول من كتابه ص ١٣١ ١٣٢) يرى أن الخط النبطي الذي كتب به نقش النمارا ربما اصطنع في أمور الحياة الخاصة ، وربما دونت به قصائد الشعراء النصارى بالحيرة ؛ ويصل من هذا إلى أن مرجليوث وطه حسين قد حادا عن الصواب حين أنكرا اصطناع الكتابة لدى عرب الشمال قبل العصر الاسلامي ، وحين انتهيا إلى أن الشعر الجاهلي منتحل كله .

يرى بروكلمان أن بعض الشعر الجاهلي قد دون في الجاهلية ، وأنه لا سبيل إذن إلى إنكار الشعر الجاهلي كله . ونحن لا نستطيع موافقته على هذا الرأي ، أولا لما قدمناه من قصور الكتابة قبل الاسلام عن أن تدون بها الأشعار . وثانيا لأننا لا نعلم شيئا عن ذلك الشعر الذي دون في الجاهلية . ومهما يكن من شيء ، فهو على حق حين يأخذ على مرجليوث وطه حسين إنكارهما اصطناع الكتابة قبل الاسلام ؛ ولكنه يحيد عن الحق حين ينتهي إلى أن بعض الشعر الجاهلي صحيح ، لأن اصطناع الكتابة ليس معناه تدوين الأشعار وحفظها من الخطأ .

على أن بروكلمان يعود فيقول إن تدوين الأشعار في الجاهلية لم يغلب على روايتها شفاها ، وإنما كانت الرواية الشفهية هي الغالبة . وهو في هذا القول يقترب كثيرا من الرأي الذي نأخذ به ، من أن الرواية الشفهية للأشعار كانت السائدة في الجاهلية . بل إننا نرى أن الرواية الشفهية ظلت سائدة حتى أخريات القرن الأول للهجرة ، أي بعد كتابة القرآن بزمن طويل . ونحن نفسر هذا بأن للعادة سلطانها وغلبتها ، وأن العرب ظلوا على روايتهم الشفهية للأشعار جريا مع العادة ومسايرة لها . هذا إلى أن طبيعة الشعر العربي القديم ، وهي طبيعة غنائية ، من شأنها الترغيب في الانشاد والرواية الشفهية ، لا الترغيب في التدوين والنقل .

بدأ العرب يدونون شعرهم في أخريات القرن الأول للهجرة . ومعنى هذا أن الشعر الجاهلي لم يتأد إلينا إلا بالرواية الشفهية . فهل من الممكن أن يكون هذا الشعر قد تأدى إلينا هكذا سالما ؟

وماذا يضمن لنا أنه ظل بعد تلك المدة الطويلة من الزمن على حاله التي صاغه فيها قائلوه ؟ ليس من ريب في أن أبياتا كثيرة يقولها الشاعر في الافتخار بقبيلته وهجاء أعدائها ، فيتناشدها قومه ويتناقلونها ، قد بقيت ولم تحل صورتها . ليس من ريب في هذا ، ولكن هناك قصائد طويلة كالمعلقات ما كانت لتبقى لو كان بقاؤها وقفا على تناشدها وتناقلها . إنما هم الرواة الذين حفظوها لنا ، ونقلوها إلينا . فقد كان لكل شاعر راويته الذي يصحبه ، ويحفظ أشعاره ، وينقلها إلى الناس . وكان كثير من الرواة شعراء ، وكان كثير من الشعراء رواة . فامرؤ القيس راوية أبي دؤاد ، وزهير راوية أوس بن حجر وطفيل الغنوي ، والحطيئة راوية زهير ، وهدبة بن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل عذرة راوية هدبة ، وكثير خزاعة راوية جميل . وكانت مهمة الراوية لا تقتصر على حفظ الأشعار ؛ وإنما كانت تجمع إلى حفظ الأشعار شرح ما فيها من إشارة ، وإيضاح ما فيها من انبهام ، وحكاية ما أحاطها من ظروف .

كانت رواية الشعر في أثناء الجاهلية وفي خلال النصف الأول من القرن الأول هوية يقصد بها التلهي وتزجية الفراغ ؛ ولكنها أخذت بعد ذلك تصطبغ بصبغة المهنة ، وتلبس لبوس العمل الذي يرجى منه الكسب . وبعد أن كان كل راو مختصا بشاعر واحد في أغلب الأمر ، يفرغ له ويعكف على شعره حفظا ورواية وشرحا ؛ أخذ الرواة يكونون طبقة خاصة ، تعنى بحفظ الكثير من الشعر القديم والمعارف المتنوعة . فلما بدأ تدوين الشعر في أخريات القرن الأول للهجرة ، كان الكثير من أشعار الجاهلية وأخبارها دائرا على الألسنة والشفاه .

إذن فالرواة هم الذين حفظوا لنا الشعر القديم ، ونقلوه إلينا ؛ ولكن ليس معنى هذا أنهم قد أدوا إلينا كل هذا الشعر القديم . فقد امتدت يد الفناء إلى كثير من هذا الشعر[1] . ذلك لأن كثيرا من الرواة قتلوا في الحروب ، أو توفاهم الله ، دون أن

(١) يقول ابن سلام الجمحي المتوفى عام ٢٣٢ هـ في كتابه طبقات الشعراء (ط المطبعة التجارية ص ١٦) : « قال يونس بن حبيب ، قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير . ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد » .

يخلفوا وراءهم من يصل روايتهم وينتهي بها إلى غايتها . هذا إلى أن قبائل كاملة ، ومعها رواتها ، قد انتشرت في البلاد البعيدة بداعي الغزو والفتح ، فنسيت لغة اعرابها وأخبار جاهليتها وأشعار شعرائها الأقدمين . كذلك ليس معنى هذا أن ما وصلنا من الشعر القديم قد وصلنا سالماً صحيحاً . ذلك لأنه قد زيدت عليه أشياء ، وسقطت منه أشياء ، وأبدل فيه شيء من شيء ؛ وهو ما يرجع السبب فيه إلى طبيعة الرواية الشفهية وقصور الواعية الانسانية .

قلنا إن رواية الشعر كانت في الجاهلية وصدر القرن الأول الهجري هَوِيّة يُقصد بها التلهّي وتزجية الفراغ ، وإنها أصبحت بعد ذلك عملا يرجى من ورائه الكسب . ونقول الآن إن هذا التطور الذي لحق رواية الشعر ليس إلا صدى لتطور لحق الحياة والناس . ذلك لأن العصر الإسلامي الجديد لم يلبث طويلا حتى أتى بوجوه من الحياة جديدة ، وميول نفسية جديدة ؛ وحتى صرف معظم المسلمين عن الشعر القديم ، ذلك الشعر الذي أصبح يمثل روح الضلال والكفر ، إلى ما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة ، ألا وهو القرآن والحديث . وهكذا أخذت صناعة الشعر كما يفهمها القدماء في الاضمحلال والذبول وأخذت أشعار الجاهلية وأخبارها في الاندثار والعفاء . لكن شيئاً حفظ على الرواية رونقها الذي كاد يبليه العصر الجديد ، وحفظ على الرواة مكانتهم التي كانت تريد أن تزول ؛ بل جعل من هؤلاء الرواة طبقة خاصة لا همّ لها إلا الرواية ، ولا شغل لها إلا ما أبقته الأيام من الشعر القديم والأخبار القديمة وتدوينها .

هذا الشيء هو مساس الحاجة إلى تفسير القرآن وشرح الحديث ، ومن ثمّ إلى كتابة النحو وتدوين اللغة . ذلك لأن العرب حين انتشروا في البلاد المفتوحة ، وامتزجوا بأهلها من الأعاجم ، وانتأوا عن الصحراء مهد لغتهم ، أخذوا يفقدون فصاحتهم الأولى ، وجعلوا ينسون بلاغتهم المأثورة . هنالك غمضت عليهم لغة القرآن والحديث ، وخفيت عليهم أسرارها . وهنالك مست الحاجة إلى تفسير القرآن وشرح الحديث ، ومن ثم إلى كتابة النحو وتدوين اللغة . وكان الشعر القديم هو أداة هذا كله . فكان الفقهاء والعلماء يلتمسون البيت أو البيتين أو الأبيات عند الرواة ، ثم يثبتونها في كتبهم . وكلما كان البيت أوغل في القدم ، كان أوثق عندهم في الاستشهاد .

كانت اللغة إذن تُدرس لا لذاتها ، ولكن لخدمة الشرع ؛ وكان الأدب يُدرس لا لذاته ، ولكن ليكون أداة لشرح الذكر الحكيم . ولكن لم تلبث الحال طويلا حتى فطن العلماء إلى أن في الشعر القديم ما يصور نفوس الشعراء القدامى ، وإلى أن هناك أسباباً من اللذة والمتاع في الأخبار القديمة . حينئذ أصبحت الحال غير الحال ، وأضحى الأمر غير الأمر ؛ فإذا بدراسة لغة القرآن تؤدي إلى دراسة الأدب نفسه ، وإذا بالدارسين يصبحون إنسانيين hnmanists بعد أن كانوا متكلمين theologiats .

حدث هذا التطور العظيم في أخريات عهد بني أمية ، وفي عهد أبي العباس والمنصور والمهدي من خلفاء بني العباس . فكان أبو عمرو بن العلاء ، وحماد الراوية ، والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، أهم القائمين بجمع الشعر القديم وتدوينه ؛ وكان أبو عبيدة والأصمعي ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وابنه هشام الكلبي ، وأبو عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي ، والسكري ، والطوسي ، أهم القائمين بجمع الأخبار القديمة وتدوينها . وكان أعراب البادية يُدعَوْن إلى الكوفة والبصرة ، ويسألون عما يحفظون من شعر وأخبار . ثم أصبح من دأب العلماء فيما بعد أن يرحلوا إلى البادية ، فيتنقلوا بين قبائلها ، ويستقوا من هذه القبائل الشعر والأخبار .

تجمعت إذن لدى الرواة والعلماء طائفة عظيمة من الأشعار والأخبار ، ضمنوها ما خلفوه لنا من آثار . وهي طائفة فيها الدلالة كل الدلالة على نوع الحياة التي كان يحياها الجاهليون ، وعلى النزعات التي كانت تعمل في نفوسهم . وليس من همنا هنا أن نفصل القول في صحة نسبتها أو انتحالها ؛ إنما نرجع القارىء إلى ما قدمناه من أن طبيعة الرواية الشفهية وقصور الواعية الإنسانية قد أديا إلى زيادة أشياء وسقوط أشياء ، وإبدال شيء من شيء . أعان على هذا ما تمتاز به اللغة العربية من كثرة المترادفات ، وهو ما قد يؤدي إلى إبدال كلمات من كلمات . وأعان على هذا أيضا أن القصيدة الجاهلية مهلهلة النسج مقلقلة الوضع ، وهو ما قد يؤدي إلى سقوط بيت أو جملة أبيات أو إلى وضعها في غير موضعها . كذلك قد نجد في قصيدة واحدة أبياتاً لشعراء مختلفين ، لم يؤلف

الوعود الثـــلاثة

فى تاريخ فلسطين

وعد الله — وعد كورش — وعد بلفور

هل التاريخ يعيد نفسه ؟

الأستاذ عيسى السفرى

إذا وقع حدث تاريخى هام ، ثم تكرر وقوع هذا الحدث ، أو ما يشبهه ، بعد مدة من الزمن[1] قالوا : « إن التاريخ يعيد نفسه »

ومن يراجع التاريخ ، قديمه وحديثه ، يجد أن الوعود الثلاثة التى حصل عليها اليهود بالعودة إلى فلسطين كانت كلها متشابهة بأسبابها ونتائجها .

فهل كان ما حدث من قبيل الصدف ؟ .. أم أن هناك عوامل غالبة جعلت التاريخ يعيد نفسه ثلاث مرات متوالية ؟.

هذا ما تجد الجواب عليه فى البحث التاريخى الآتى :

١ — وعد الله

(١) تمهيد: اليهود قبيلة سامية هاجرت (بزعامة ابراهيم) من أور[1] الكلدانيين فى العراق سنة ١٩٢١ق. م بضغط من سكانه وتوطنت فلسطين أرض الكنعانيين[2] ، ولكن الكنعانيين قاوموهم وأجاعوهم فاضطروا للهجرة إلى مصر . واضطهدهم المصريون بدورهم وأذلوهم فأجبروهم على العودة إلى فلسطين يقودهم موسى النبى . وكان ذلك سنة ١٤٩١ ق. م

وتاه بهم موسى فى برية سيناء أربعين سنة ليقضى على جرثومة الذل التى تأصلت فى نفوسهم ، ويجعلهم مستعدين لفتح فلسطين . وعبثاً كانت محاولته هذه ، فقد تمردوا عليه وأبوا أن يدخلوا فلسطين ، ذلك بأن فيها قوماً جبارين (هم الفلسطينيون)

«ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا فإنا داخلون ... »

« قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون[3] »

وهكذا اضطر موسى أن يذهب بهم إلى فلسطين عن طريق

(١) اللفظة : للمقدار من الزمن يقع على القليل والكثير .

(١) أور : كلمة [illegible]دانية معناها مدينة .

(٢) كنعان معناها بالعبرية الأراضى الواطئة ، وكانت مساكنهم [illegible] وقد هاجروا من جز[illegible] العرب سنة ٢٥٠٠ ق. م

(٣) سورة [illegible] الآيات ٢٠ و٢١ و٢٢

بينها إلا اتفاق الوزن والقافية . هذه كلها وجوه لما لحق الشعر الجاهلى من زيادة وحذف وتغيير . ثم لا ننسى أن من الرواة من كان يتعمد الخلق والتغيير . ودليلنا على هذا قلة ما نلقاه فيما لدينا من الشعر من أسماء الآلهة الجاهلية ، وهى آلهة كانت تشغل جانباً من حياة الجاهليين ، وكان لها صدى ولا شك فى أشعارهم . ثم هناك من الرواة من كان يُصلح ما يصل إليه من أشعار ، ويزيد عليه مُكمِّلا . هذا إلى ما يقوله ابن سلام (ص ٢٢) من أنه لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ؛ وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم . وأخيراً نصل إلى من كان يقصد الخداع من الرواة ، فكان ينحل شعره الشعراء القدماء ، ليشتهر بين الناس بكثرة الرواية ؛ ويقول فى هذا ابن سلام (ص ٢٢–٢٣)

« ... ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » . فهذه وجوه أخرى لما لحق الشعر الجاهلى من زيادة وحذف وتغيير وانتحال .

* * *

هذه صورة للرواية العربية قبل عصر حماد وفى أثناء عصره ؛ جهدنا أن تكون واضحة الخطوط ، بينة الملامح ، صادقة التعبير . وهى صورة ستعيننا دون ريب على تفهم رواية حماد الخاصة به ، وعلى بحثها البحث الصحيح القائم على أسس صحيحة ، وعلى الخروج من هذا بالنتائج الصحيحة التى إنما نكتب هذا البحث فى سبيل بلوغها .

(البحث بقية) السيد يعقوب بكر

الجنوب الشرقي ليتحاشى بأس الفلسطينيين سكان الساحل .

وصعد موسى إلى جبل نبو قبالة أريحا فأراه الرب أرض فلسطين وقال له :

« هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها ، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر(١) » .

٢ — وعد الله

ومات موسى ، فتسلم يشوع بن نون القيادة من بعده . ونفذ (يهوه)(٢) وعده على يد يشوع(٣) . وفيما يلي نص هذا الوعد :

عبدي يشوع

قم الآن واعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . تشدد وتشجع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم(٤) .

في الشهر الأول من السنة ٢٥٥٤ للخليقة(٥) (...)

فكان هذا أول وعد أعطي لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

وكانت أوامر يشوع لجيشه ، عند ما فتح أريحا ، شديدة قاسية ، فقد حرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها(٦) .

وهذه القسوة الوحشية في الفتح جعلت الكنعانيين وغيرهم من السكان يحقدون على اليهود الغاصبين ، ويتربصون الفرص للإيقاع بهم . ومن حسن حظ اليهود ، لا بل من سوء حظ فلسطين ، أن كان الكنعانيون في أواخر مجدهم وسلطانهم ، فمكن ذلك اليهود من الاستقرار إلى حين في فلسطين .

على أن استقرار اليهود في فلسطين لم يزد على ٦٤٥ سنة ، كانوا خلالها عرضة لغزوات أهل البلاد ، الكنعانيين في الداخل والفلسطينيين في الساحل . ثم دب الخلاف بينهم فانقسموا إلى

(١) سفر التثنية ٣٤ : ٤ (٢) يهوه : إله إسرائيل

(٣) أعطي هذا الوعد لإبراهيم ونفذ في زمن يشوع

(٤) سفر يشوع ١ : ٢ و٣ و٤ و٦

(٥) للموافقة لسنة ١٤٥٠ ق.م

(٦) كتاب فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ٦٨ .

فئتين : مملكة إسرائيل وقصبتها السامرة (نابلس) ، ومملكة يهوذا وقصبتها أورشليم (القدس) ولم تمتد حدود هاتين المملكتين المنطقة الجبلية في فلسطين كلها ...

* * *

ولم يفعل اليهود المستقيم في عيني الرب ، فتركوا عبادته وعبدوا تماثيل مسبوكة للبعليم(١) وذبحوا لها . حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ، ونجسوا بيت الرب الذي قدسه في أورشليم(٢) ، وكانوا يهزأون برسل الله ، ورذلوا كلامه ، وتهاونوا بأنبيائه(٣) ، وأساءوا إلى الله الذي أحسن إليهم الإحسان كله ! ... وهو الذي أخرجهم من أرض مصر من بيت العبودية ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعلهم أمة بين الأمم .

وكانت أعمال اليهود المنكرة مثاراً لغضب الله . فأظهر شلمناصر ملك أشور على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق . م فأبادها وسبي شعبها إلى مملكته . كما أظهر نبوخذ نصر ملك بابل (بعد ذلك) على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م فأبادها وقتل مختاري اليهود بالسيف في بيت مقدسهم ، ولم يشفق على فتى أو عذراء ، أو شيخ أو أشيب . وأحرق بيت الله وهدم سور أورشليم ، وأحرق جميع قصورها بالنار ، وأهلك جميع آنيتها الثمينة ، وسبي الذين بقوا من السيف إلى بابل ، فكانوا له ولبنيه عبيداً(٤) ...

وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون(٥)

وهكذا كانت إرادة الله باليهود الذين اختارهم (كما تقول التوراة) من دون شعوب الأرض ليكونوا شعباً له مختاراً ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الأول من رواية الوطن القومي اليهودي في فلسطين !

٣ — وعد قورش

دام السبي البابلي مدة ٧٠ سنة . ثم ورث قورش ملك الفرس إمبراطورية الكلدانيين ، فأخذ اليهود ينوحون ويبكون ، يرجون ويستعطفون ، ويطلبون العودة إلى فلسطين ! .

(١) البعليم بالعبرية جمع بعل أصنام أو ملوك أو آلهة زور .

(٢) هو الهيكل الذي بناه سليمان في القدس سنة ١٠١٢ ق . م .

(٣) سفر أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ١٤ و١٦ .

(٤) « « « « ٣٦ : ١٧ — ٢٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ٦٠ .

ولسياسة موضوعة ... سار قورش المجوسى من المؤمنين بإلـه إسرائيل ! ... فأطلق نداء فى كل مملكته ، فى السنة الأولى لملكه ، فقال :

«إن الرب إلـه السماء قد أعطانى ممالك الأرض ، وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهوذا . مَن منكم من جميع شعبه الرب معه وليصعد»[1]

ومات قورش فخلفه أرتحشستا ؛ وهنا ثبت وعد قورش كتابة بالتصريح الآتى وهذا نصه :

من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزوا الكاهن كاتب شريعة السماء قد صدر منى أمر أن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم فليرجع ، وأن يبنى بيت الرب إلـه إسرائيل . وليعلم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والنثينيم[2] وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة[3]

فى السنة السابعة للملك (٥٢٩ ق. م) (التوقيع)

فكان هذا ثانى وعد أعطى لليهود بالعودة إلى فلسطين .

* * *

عاد اليهود إلى فلسطين ، بحسب منطوق هذا الوعد متحدّين إرادة الله وإرادة سكان البلاد . وبنوا الهيكل ورمموا أسوار المدينة (القدس) فكانوا باليد الواحدة يعملون العمل ، وبالأخرى يمسكون السلاح[4]

وكتب زعماء البلاد ، سنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى وجشَم العربى ، إلى الملك محتجين وقائلين :

« فتّش فى سفر أخبار آبائك فتجد فى سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد ، وقد عملوا عصياناً فى وسطها منذ الأيام القديمة ، لذلك أخربت هذه المدينة . ونحن نُعلم الملك أنه إذا بُنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب فى عبر النهر[5] ...

وهكذا قام أصحاب البلاد بالواجب عليهم محذرين مملكة فارس من نتائج هذه السياسة ! ...

مرت سنون ، تناوب الحكم فى فلسطين اليونان والرومان[6] وظلت المدينة عاصية ، بالرغم مما عمله بيلاطس النبطى (عامل رومة على فلسطين) لليهود . فقد شيد بعض الحامات فى السامرة (نابلس) وجلب الماء الكافى إلى أورشليم (القدس) من الينابيع الموجودة جنوبى المدينة ؛ وأنشأ طريقين يؤديان إلى القدس من الشمال ومن الشرق ، فنشطت حركة التجارة وحركة الحجاج ، وهما مورد لا يستهان به لزيادة الدخل[1].

وأعمال كهذه يقوم بها بيلاطس لخدمة اليهود تستحق منهم أن ينصبوا له تمثالا ! ... وفوق هذا كله فإن بيلاطس التعس[2] لم يسمح له قيصر بأن تنشب ثورات عنده ، وهو فى الوقت ذاته ممنوع من مكافحة التحريضات التى يقوم بها اليهود فى الجليل[3]

أما أشد المحرضين فلم يكونوا الكهنة ولا رجال الشرع أنفسهم ، وإنما كانوا الشبان الكثيرى الإدعاء ، ممن يحضرون خطبهم ومحاضراتهم . هؤلاء هم الذين يبثون فى الجمهور العادى روح التمرد والشغب[4] إنهم يهددون رومة وفى الوقت نفسه يساومون ! ... وقد علقوا لوحات ونشرات كبيرة على أسوار (أنطونيا) كتبت عليها جمل تحريضية فيها تشهير ببيلاطس وقيصر[5]

(ه) خراب ودمار : وتمادى اليهود فى تمردهم وشغبهم حتى يئست حكومة رومة من إيجاد علاج لهذه الحالة . فأرسلت (تيطى) القائد الرومانى سنة ٧١ ميلادية ، فحاصر القدس ثم هدمها وهدم الهيكل إلى أساساته . فهلك من اليهود مليون ومائة ألف نفس بالجوع والنار والسيف ، ونحو ٩٧ ألفاً بيعوا كعبيد ، ما عدا جوعاً لا تحصى هلكت فى أماكن أخرى فى اليهودية[6] ، وتم بذلك قول المسيح عليه السلام :

«يا أورشليم يا أورشليم ، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردتُ أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يُترك لكم خراباً[7]».

وهكذا كانت إرادة الله ، وبإرادته هذه انتهى الفصل الثانى من رواية الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ! ...

٣ — وعد بلفور

ظل اليهود بعد ضربة تيطى مشتتين فى بقاع الأرض ، وحل

(١) سفر أخبار الأيام الثانى ٣٦ : ٢٣ .
(٢) النثينيم : الموهوبون أو المعطون .
(٣) عزرا ٧ : ١٢ و١٣ و٢٤ .
(٤) سفر نحميا ٤ : ١٧ . (٥) سفر نحميا ٢ : ١٩ .
(٦) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص٦٧

(١) رسائل بيلاطس النبطى ص ٢٧ .
(٢) يقوم مقامه اليوم المندوب السامى .
(٣) و(٤) و (٥) رسائل بيلاطس النبطى ص٢٩ و١٠٦ وأنطونيا قصر بيلاطس النبطى
(٦) يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير .
(٧) متى ٢٣ : ٣٧ و٣٨ .

الحكم العربي محل الحكم الروماني سنة ٦٣٧ م . وقد فتحوا هذه البلاد فتحاً إنسانياً عادلا . تدل عليه الوصية الخالدة التالية[١]:

« لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً . ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً . وسوف تمرون بأناس قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له »

وهكذا كان الحكم العربي (الذي دام مدة ٨٨٠ سنة) نعمة كبرى للناس وبخاصة اليهود قلدت به أعناقهم . ثم انتقل الحكم إلى الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ ميلادية ، وكان العرب شركاء لهم في الحكم مدة ٤٠٠ سنة[٢]

* * *

وفي سنة ١٩١٧ احتل الإنكليز فلسطين وقام اليهود بالتجربة القاسية للمرة الثالثة . ولسياسة موضوعة ... أصبح الإنكليز القيمين على راحة اليهود وطمأنينتهم ، فأعطوهم وعداً بالهجرة إلى فلسطين هذا نصه :

عزيزي اللورد روتشلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وتبذل الجهود في سبيل ذلك . على أن لا يجرى شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين ، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى .

اللورد بلفور
في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وزير الخارجية البريطانية

وهكذا اختلف الناطقون بهذا الوعد باختلاف المكان والزمان . فمن وعد ينطق به الله ، إلى وعد ينطق به ملك ، إلى وعد ينطق به وزير ... وهو ثالث وعد أعطى لليهود بالعودة إلى فلسطين . .

وطمع اليهود بعد ذلك في الوطن القومي بفلسطين كلها ... واحتج العرب أصحاب البلاد على ذلك ، وأنذروا بريطانيا من عواقب هذه السياسة الخاطئة .

وازداد تمرد اليهود وتحديهم لسلطة لندن حتى اعتدوا على رجالاتها المسئولين بالقتل والإرهاب[١] وأتلفوا الكثير من دوائر الحكومة وممتلكاتها ، ونسفوا مراكز البوليس بالديناميت ، وأتلفوا خطوط السكك الحديدية ، وتحدوا القانون بتهريب مهاجريهم غير الشرعيين ... واعتداءاتهم المتواصلة على رجال الأمن ، دون أن يُسمح لهم بأن يطلقوا النار على المعتدين حتى ولو قتل هؤلاء إخوانهم[٢] ووزعوا المنشورات التحريضية المختلفة ، فيها تشهير بحكومة فلسطين وسلطة لندن !

وكما تحدى اليهود الإنكليز وأساءوا إليهم ، كذلك تحدوا العرب في عقر دارهم بالسلاح وأساءوا إليهم ، وهم الذين أووهم في بلادهم وكانت إمبراطوريتهم الواسعة فيما مضى الملجأ الوحيد لهم من الاضطهاد اللاسامي الذي أثاره عليهم الغرب !...

والإنكليز هم الذين مكنوا اليهود في فلسطين ، وألقوا مقاليدها التجارية والمالية والاقتصادية بين أيديهم . وهم الذين سهلوا لهم (بجميع الطرق) استملاك الأراضي في فلسطين لاستقرار مهاجريهم الشرعيين وغير الشرعيين فيها ، ووقفت جميع أسلحتها لحمايتهم ، وسخرت برلمانها لسماع أباطيلهم ! ...

وكان الواجب على اليهود أن يقبّلوا اليد التي أحسنت إليهم لا أن يحاولوا قطعها ، وأن يشكروا العرب جزيل الشكر على عسكهم إلى الآن بأهداب الصبر الجميل ! . .

وما أشبه ثورة اليهود على الإنكليز اليوم بثورتهم على الرومان في الماضي . والعالم أجمع يتجه بأبصاره نحو فلسطين ، ويرقب باهتمام نهاية الفصل الأخير من هذه الرواية المحزنة التي يلذ لرجال السياسة إعادة تمثيلها للمرة الثالثة !

والناس يتساءلون عن التاريخ هل يعيد نفسه ؟ .... وهل يؤدي وعد بلفور إلى نفس النتيجة التي أدى إليها وعد الله ووعد قورش ؟ ...

إن النتيجة لا تزال في ضمير الزمن ، والمستقبل القريب أو البعيد هو الذي سيقول ، في الوطن القومي اليهودي ، كلمته الفاصلة ! وإرادة الله فوق الجميع ! ...

(يافا) عيسى السفري

(١) هي وصية الخلفاء الراشدين للقواد — ابن الأثير . قابلها بوصية يشوع بن نون !

(٢) فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية لصاحب هذا المقال ص ١٢ .

(١) أطلقوا النار على فخامة المندوب السامي السرهارولد مكمايكل في القدس بتاريخ ٨ آب سنة ١٩٤٤ بقصد اغتياله . وقتلوا اللورد موين في القاهرة بتاريخ ٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ .

(٢) سؤال أثاره في البرلمان اللورد ونترتون . قابل هذا بما كان يشكو منه بيلاطس النبطي .

المرأة والســـياسة(*)

للأستاذ سعيد الأفغاني

* يطيب لبعض الصحف والمجلات في هذه الأيام ، أن تغرق في مجاملة المرأة الخارجة على أنوثتها ، الساخطة على الطبيعة التي نيط بها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق وإلى ما يعزها في المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوى بها الطيش في مكان سحيق وتفقد مالها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع .

وآخر ما قرأت دعوة متطرفة تذهب إلى وجوب تولية النساء الوزارات والادارات ، نصيبها من ذلك نصيب الرجال سواء بسواء . والفكرة ظاهرة التهافت ، وقد سبق لأقلام بليغة في مجلتنا (الرسالة) أن أظهرت زيفها وبهرجتها فما بنا إلى معالجتها من عودة ، وإنما نذكر هنا نصيبها من ممارسة الشئون العامة في صدر تاريخنا ففي هذا النصيب لها مجد وأمن واعتدال .

الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة ، وما فطرها عليه من خصائص (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية : خصائص قاهرة لا بد للانسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويراً في تركيب الدماغ وبنية خلاياه ، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة العميقة الطبيعية التي تعنى بالتمييز الدقيق عناية تتطلبها عمارة هذا الكون القائمة على تقسيم الأعمال والوظائف ، وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وخلق له . وكل مجتمع يحاول بنائه إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين وتجاهل السمات البينة ، فمصيره إلى الاضطراب والفساد : لأن في ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على طبائع الأشياء فنه الضرر كل الضرر ، ولا يرجى له دوام ، وإن خيل لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصبا لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ولا باختلاف الأعصار والأمصار ، ولا يتفاوت (البيئات) رقيا وانحطاطا ولا بتغاير الأفراد تربية وثقافة .

المرأة ربة أسرة وسيدة بيت ، فمهما احتلت لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال وتسلية أزواج وتدبير منزل ... فإنما تحاول خرقاً لقانون طبيعي ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجه المهد الطويل ولا المرن المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذى العين ويسدم الفؤاد .

فمن الداهة إذاً أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح وتدبير الممالك وسياسة الناس ... فن الرجال الخاص ، كما أن الأمومة وتدبير المنزل فن نسوى محض .

ولئن حفظ التاريخ شواهد كثيرة في قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إني لا أجد في هذه الشواهد كلها مايمس هذه القاعدة ؛ بل أقرر أنها كلها تؤيدها . ولأى مثقف كان أن يسرد ما في ذهنه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ممالك ، أو نائبات في المجالس ... الخ ثم يستقرى أحوالهن واحدة واحدة وعمن فيما حف بهن ... فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب .

« وإذا زعم بعضهم أن حكومات النساء في بعض ممالك أوروبا كانت أرقى من حكومات الرجال ، فذلك لأن حكومات النساء أدارها الرجال من وراء حجاب ، و (الأمر) على العكس في حكومات الرجال : كثرت فوضاها في بعض الأدوار لأن النساء كن يدرنها في غفلة عن الرجال ... وكن إذا تدخلن في أمور الدولة تميل إلى الإنحطاط ؛ ولذلك كان عقلاء الملوك يحظرون على نسائهم الاشتراك فيما لا شأن لهن فيه من أمور السياسة ... »

« وبعد فلماذا لم يقل لنا النادون بإعطاء المرأة حقوقاً (سياسية) على مثال الرجال : كيف تمسى حال البيوت بعد انقلابهم الذى يتوقعونه ؟ لاجرم أن الشقاء سيخيم على كل أسرة يشتغل ربانها خارج بيوتهن ، اللهم إلا إذا كان في النية أن يعمدوا إلى دفع أولادهم إلى الحكومات تربيهم تربية مشتركة كأنهم بعض القطعاء

(*) من كتاب تعده عن (عائشة والسياسة) يكشف أبلغ عبرة حواها تاريخنا ، وذلك حين همت المرأة أن تمس أشها في السياسة ، وكان لنا من ذلك درس أليم فاجع لا ينسى ، إذ كلفنا دماء عشرات الألوف من رجالنا ، وقضى على خير العهود : عهد الراشدين .

من أولاد النفول : لا يذوقون فى هذه الملاجىء طعم الهناءة البيوت ولا يرون أثراً للروابط الروحية بين الأولاد والأبوين[(١)] » .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً فى التفكير ، وسداداً فى المنطق ، وحساباً دقيقاً للعواقب ، وصبراً مضنياً وضبطاً للعواطف وكبحاً للأهواء ... إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة . فلا عجب أن كان اضطراب الأمور وتدخل المرأة فى السياسة قرينين فى التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار . ومع هذا فقلما خلت امرأة — مهما حف بها من فحول محنكين — من طامع فيها مستغل لضعفها . وما أكثر ما حفظ التاريخ من عروش كان الغرام هو الحاكم فى ممالكها .

وهناك كلمة متداولة منذ القديم ، لا شك فى أنها عصارة التجارب على الزمن ، وهى قولهم : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . »

ويعجبنى فى ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أف أكسفورد :

« ... هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟ إنى لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه « الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء فى شارع داونتج رقم ١٠ » [(٢)]

ولقد سارت أمم غربية راقية فى أوروبا وأمريكا خطوات فسيحة فى إنالة النساء حقوقاً سياسية ، فما أظفرها ذلك بطائل بل كانت نتيجة التجربة أن ضج عقلاؤهم من تلك الأوضاع الشاذة، الخارجة على الفطر السليمة .

وليس تاريخ العرب بيدع فى تواريخ الأمم ، فالحكم واحد كما أسلفنا ، فحيث رأيت انحطاطاً فى إدارتنا أو تقهقراً فى سياستنا ففتش عن المرأة .

وكتابنا هذا (عائشة والسياسة) فيه أكبر عبرة فى هذا الموضوع ، ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء

(١) مجلة المجمع العلمى العربى م ٢٠ ص ٢٩٢ — ٢٩٤ .
(٢) انظر العدد ٥٦٠ من مجلة الرسالة (ص ٣٦٩) .

فى السياسة ، أن كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوى مثلها رجال عديدون ، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية فى الإصلاح ولا انطواؤها على الخير للمسلمين .

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة . » [(١)]

* * *

إذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد فى الإسلام ، رأيت المسألة تختلف بين يديك ، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد ، وأنها هى والرجل سواء فى المطالبة به ، كل بحسب استعداده واختصاصه : فالرجل للقتال والمرأة لتمريض الجرحى والعناية بشئون الجيش من نحو إسقاء وإطعام وغسل وخياطة ... ثم هى مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التى تنتظرهم فى أنفسهم وحرمهم إذا هم تهاونوا فى الدفاع .

والمرأة العربية فى هذا الميدان الموقف المحمود الذى لا يجارى ، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها . وعلى هذا درجت فى جاهليتها من قبل أيضاً فكان إليها فى الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسق الماء وتحميس المحاربين[(٢)] .

جاء الإسلام ففتحت عينيها — لما أظلتها رايته — على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها ، وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله على نعمته هذه شكراً عملياً :

قاست فى أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت فى صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية فى الشكران[(٣)] .

صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فى مغازيه ، وأبلين معه البلاء الحسن ، فكن نعم المعينات للمحاربين : يداوين

(١) مسند أبى داوود الطيالسى ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٥ — ٤٣ ، ٤٧
(٢) انظر كتابنا الاسلام والمرأة ص ٢٠
(٣) المصدر السابق ص ٣٢

جرحاهم(١) ويحملن الماء فى القرب يسقينهم ، ويتعهدن أطعمتهم وملابسهم وقربهم ، وكن حين الحاجة يمارسن القتال .

ثم تتابعت المواقف المأثورة للمرأة من بعد الرسول ، ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت ضرار فى فتوح الشام وحسن بلائها فى الروم ، ولا موقف الخنساء فى يوم القادسية وكانت واحدة من كثيرات :

ذكر الطبرى أن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى قالت :

« شهدنا القادسية مع سعد (بن أبى وقاص القائد العام) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرّفهم به »(٢) .

وإذا كانت هذه الوقعة من الخطر بحيث أنها هى الفاصلة بين العرب والفرس ، وأنها لها ما بعدها ، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق ، حتى إن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل فخراً خالداً إذ أخرجتا نساءهما معهما ، فكان فى قبيلة النخع — على ما يذكر الطبرى — سبعمائة امرأة لا زوج لها ، وفى قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً فى هذه الحرب ، وكانت النخع تسمى : (أصهار المهاجرين)(٣) .

لقد شرع الرسول لمن بعده الاستعانة بالنساء فى الجهاد ، وأنابهن عليه من الغنائم ، ودرج خلفاؤه من بعده على سنته ، حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناس بالسنة ، شك بعضهم فى هذه الاستعانة ، فكتب نجدة بن عامر الحرورى إلى ابن عباس يسأله :

« هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ »

فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلى تسألنى : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحْذَين (يعطين) من الغنيمة »(١)

كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد وهو فى حال الفتح والهجوم ، حين يكون الجهاد فرض كفاية على الرجال أنفسهم ؛ فأما إذا انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فحينئذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لا يستثنى من هذا الفرض صبى ولا امرأة ولا رجل .

ونصوص الفقهاء — إزاء هذه الحالة — متضافرة على أنه يجب على المرأة أن تخرج للقتال بلا إذن زوجها (٢)

وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد (يوم كان العبيد بعض الناس) لا يستأذن أحد أحداً فى تأدية هذا الواجب

* * *

من شأن السياسة المزالق الخفية والأخطار الكامنة ، فهى على المرأة حرام صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ؛ أما الجهاد فطريق لاحبة عواقبها مأمونة وفوائدها مضمونة ، فللمرأة أن تنال من هذا الشرف نصيبها الأوفى

ليتنا فى غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضى ، ونسير غير متخبطين : نبصر مواطئ أقدامنا ونتقى المزالق ونجند كلا فى ميدانه الذى لا يصلح لغيره . لقد تداعت علينا الأمم وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا فى أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس فى جهودنا فضل ننفقه فى رد العابثين عن عبثهم ، فليتق الله حملة الأقلام ، وليصونوا الشاردات عن القطيع وليرجعوا بهن عن طريق وضمن أقدامهن فى أوله ، وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولا ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع ، وموت كل كرامة إنسانية !

(دمشق) سعيد الأفغانى

(١) أقام الرسول خيمة فى مسجده لرفيدة إحدى ممرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ وهو مريض

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٨٢ (مطبعة الاستقامة ١٣٥٨)

(٣) الصفحة نفسها من المصدر السابق .

(١) تيسير الوصول ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) انظر فى ذلك : باب السير أو الجهاد فى كتب الفقه مثلا : شرح الزيلعى على متن الكنز (٣ — ٢٤١) والحكم مشهور لأن الاسلام لا يقر احتلالا لأجنبى بحال من الأحوال ، ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

سجون بغداد

زمن العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ٧ —

[تتمة]

— ٥ —

ولعلىّ بن الجهم قصيدة أخرى قالها فى الحبس ، منها :

توكلنا على ربّ السماء   وسلمنا لأسباب القضاء
ووطّنّا على غير الليالى   نفوساً سامحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجّبات   وباب الله مبذول الفناء
هى الأيام تكلمنا وتأسو   وتأتى بالسعادة والشقاء
حلبنا الدهر أشطره ومدّت   بنا عقب الشدائد والرخاء
وجرّبنا وجرّب أوّلونا   فلا شىء أعز من الوفاء
ولم ندع الحياء لمس خير   وبعض الضرّ يذهب بالحياء
ولم نحزن على دنيا تولّت   ولم نسبق إلى حسن العزاء(١)

— ٦ —

ومن أروع وأرق ما قيل فى الحبس قول محمد بن صالح العلوى ، وكان خرج على المتوكل فظفر به وسيّره إلى سرّ من رأى فحبس .

طرب الفؤاد وعاده أحزانه ،   وتشعّبت شُعباً به أشجانُه
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى   برق تتابع مَوْهناً لمانُه
يبدو كحاشية الرداء ودونه   صعب الذرى متمنع أركانُه
فدنا لينظر أين لاح فلم يُطق   نظراً إليه وردّه سجّانُه
فالوجد ما اشتملت عليه ضلوعه   والماء ما سحّت به أجفانُه
ثم استعاذ من القبيح وردّه   نحو العزاء عن الصِّبا إيقانُه
وبدا له أن الذى قد ناله   ما كان قدّره له ديّانُه(٢)

(١) الأغانى : ترجمة على بن الجهم .
(٢) الأمالى والنوادر ج ٣ ص ١٨٣

— ٧ —

ولإبراهيم بن المدبر فى حبسه أشعار حسان منها قوله فى قصيدة أولها :

أدموعها أم لؤلؤ متناثر   يندى به ورد جنى ناضر

يقول :

لا تونسنك من كريم نبوة   فالسيف ينبو وهو عضب باتر
هذا الزمان تسومنى أيامه   خسفاً وها أنذا عليه صابر
إن طال ليلى فى الإسار فطالما   أفنيت دهراً ليله متقاصر
والحبس يحجبنى وفى أكنافه   منى على الضرّاء ليث خادر
عجب له كيف التقت أبوابه   والجودُ فيه والغمام الباكر
هلا تقطّع أو تصدّع أو وهى   فعذرته ، لكنه بى فاخر(١)

— ٨ —

ولما غضب جعفر على ابن الزيات عذبه فى التنور . وكان قد حبسه قبل تعذيبه فى بيت . فوجد على الحائط قوله :

لعب البلى بمعالمى ورسومى ،   ودُفنتُ حياً تحت ردم غموم
وشكوت غمى حين ضقت ومن شكا   كرباً يضيق به ، فغير ملوم
لزم البلى جسمى وأوهن قوتى   إن البلى لموكل بلزومى
أبنيّتى قلّى بكاءك واصبرى   فإذا سمعت بهالك مغموم
فانعى أباك إلى نساء واقعدى   فى مأتم يبكى العيون وقومى

وقال فى التنور الذى عُذّب فيه :

هيض عظمى الغداة إذ صرت فيه   إن عظمى قد كان غير مهيّض
ولقد كنت أنطق الشعر دهراً   ثم حال الجريض دون القريض(٢)

— ٩ —

وبعث الإفشين إلى المعتصم من الحبس : « إن مثلى ومثلك يا أمير المؤمنين كمثل رجل ربّى عجلاً له حتى أسمنه ، وكبُر ، وحسُنت حاله . وكان له أصحاب اشتهوا أن يأكلوا من لحمه

(١) الأغانى ج ١٩ ص ١١٥ .
(٢) البيهقى ص ٥٧٠ .

هذا العالم المتغير

سمنوا الأرض تضاعفوا الإنتاج الحيواني

للأستاذ فوزي الشتوي

الحيوان وغذاؤه :

« لا تعلفوا الماشية بل اعلفوا الأرض » . بهذا رد العلماء الأمريكيون والمهتمون بزيادة الإنتاج الحيواني من لحم ولبن وما يتفرع منهما . فلم تكن الثروة الحيوانية وتوفير أغذيتها من معضلات الشرق وحده بل امتدت إلى كل بلاد العالم . وظلت بضع سنوات مشكلة علماء الحيوان وموضوع بحثهم حتى حلت عن أيسر طريق فأزالت ما كان يهدد الصحة العامة من علل .

والفلاح عندنا يدرك أن الحشيش والبرسيم وحدها ليسا من الأغذية الكافية لبقرته فيلجأ إلى علفها بالفول برغم ارتفاع ثمنه . ومع ذلك فلدينا نقص ملحوظ ، فكثير من الأبقار لا تلد وتنتج ذرية كالمعتاد .

ودرس العلماء ظواهر هذا الضعف وعزوه إلى سوء التغذية ومن ثم أقبلوا على أنواع الغذاء المختلفة ، فجربوا كسب القطن والفول وشتى أنواع الأغذية الحيوانية ؛ ولكن واحداً منها لم يوصلهم إلى هدفهم المنشود وزيادة وزن الحيوانات بما يتناسب وما تستهلك من طعام حتى تعادل النفقات الثمار .

الطبيعة أنسب :-

وانتقلت التجارب إلى مرحلتها الكيماوية أيضا فأضيفت مواد الحديد والمنجانيز والكالسيوم إلى أغذية الحيوانات فلم تؤد إلى نتيجة سارة . واحتفظت الماشية بنحافتها وسوء تغذيتها . واستمرت التجارب وقتاً طويلا تقلب فيه العلماء بين شتى أنواع الأغذية الغالية والرخيصة فلاحظوا أن شهية الحيوان أقوى ما تكون إلى رعى الحشيش وليس إلى وسائلهم الصناعية .

وأخيراً لجأ العلماء إلى تغذية قطعانهم بمركبات الفوسفور .

فعرضوا له بذبح العجل فلم يجبهم . فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم : ويحك ، ألم تر هذا الأسد وقد كبر ، والسبع إذا كبر رجع إلى جنسه ، فقال لهم : هذا عجل . فقالوا هذا سبع ، سل من شئت عنه . وقد تقدموا إلى جميع من يعرفه أنه إن سألهم عنه قالوا : هو سبع . فأمر بالعجل فذبح . ولكني أنا ذلك العجل ، كيف أقدر أن أكون أسداً ؟ الله الله في أمرى ، فقد وجب حق . وأنت سيدى ومولاى » فلم يلتفت المتعصم إليه[١]

— ١٠ —

ومما نسب إلى ابن المعتز قوله :

تعلمت في السجن نسج التكك ... وكنت امرأ قبل حبسي ملك

وقُيِّدت بعد ركوب الجياد ... وما ذاك إلا بدور الفلك

ألم تبصر الطير في جوه ... يكاد يُلامس ذات الحُبُك

إذا أبصرته خطوب الزما ... ن أوقعنه في حبال الشرك

فها ذاك من حالق يُصاد ... ومن قعر بحر يُصادالسمك[٢]

(١) البيهقي ص ٥٦٠ .
(٢) المحاسن والمساوىء ص ٥٧١ .

— ١١ —

وعقد الثعالبي في اليتيمة لأبي إسحق الصابي فصلاً سماه « ما أخرج من شعره في الحبس »[١] وأكثره في الحكمة والشكوى وذم الدنيا . فمن ذلك قوله :

يعيّرني بالحبس من لو يحله
حلولي لطالت واشمخرت مراكبه

ورب طليق أطلق الذل رقه ... ومعتقل عانٍ وقد عز جانبه

وإنى لقرن الدهر يوماً تنوبني ... سطاه ويوماً تنجلي بي نوائبه

ومن مدّ نحو النجم كيما يناله ... يداً كيدى لاقته أيدٍ تجاذبه

ولابد للساعي إلى نيل غاية ... من الجد من ساع تدب عقاربه

وما ضرنى أن غاض ما ملكت يدى
وفى فضل جاهى أن تفيض مذاهبه

ولى بين أقلامى ولبّى ومنطق
غنّى قلّما يشكو الخصاصة صاحبه[٢]

صلاح الدين المنجد

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٦٧ .
(٢) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٤٨ .

والعظم كما تعرف من أعنى الواد بهـا فـلوحظ تحسن ظاهر اكتسمت فيه الماشية لحما وتحسنا فى انتاجها وزيادة ذريتها .

وعندئذ عرف الباحثون أنهم وضعوا أصابعهم على مفتاح حل معضلتهم وبقى عليهم أن يجدوا الطريقة المثلى لتطبيقه فأى نسب الفسفور أجدى ؟ وكيف يطعم بها الحيوان بأرخص ثمن ؟

وأسفرت التجارب الطويلة عن اكتشاف الحل المرغوب وهو : « سمدوا الأرض بمواد فسفورية » ، وانطلقت على أثره الصيحة التى سدرنا بها المقال وهى أن : « اعلفوا الأرض ولا تعلفوا الماشية » .

تسميد الأرض بالفسفور :

أما كيف وصل العلماء إلى هذا المبدأ ، فإنهم قسموا ماشيتهم إلى خمسة قطعان يتراوح عددها بين ٤٠ و ٧٥ بقرة . اقتصرت تغذية القطيع الأول منها على الغذاء العادى .

وترك القطيع الثانى ليرعى حقلا نثرت على حشيشه مساحيق العظام والملح ليكون مقبول الطعم من الماشية . وأضيف أحد محاليل الفسفور إلى المياه التى يشربها القطيع الثالث . أما القطيع الرابع فخلط طعامه من كسب بذرة القطن بالفسفور .

وكان القطيع الخامس هو بيت القصيد ، فترك يرعى فى حقل سمدت أرضه بالفسفور قبل زرع حشيشه بمعدل ٧٧ رطلا للفدان الواحد . وكان ما يخص كل رأس من الماشية من أرض المرعى أقل من المعدل المعتاد .

ولوحظ عند بدء التجربة أن يكون وزن جميع القطعان متساويا بمتوسط ٧٠٠ رطل للرأس الواحدة . وبعد سنة من بدء التجربة ارتفع وزن كل بقرة من الماشية التى كانت ترعى الحشيش الذى سمدت أرضه إلى ١٠٣٦ رطلا بزيادة ٨٤ رطلا عن معدل الزيادة فى الأبقار الأخرى .

وكانت أقل القطعان فى تربية اللحم القطيع الذى عاش على وسائل التغذية العادية . وكان القطيع التالى هو الذى أضيف إلى غذائه مساحيق العظم .

٦٠ ٪ زيادة

وثمة حقيقة أخرى أثبتتها تجارب العلماء. فإن الأبقار التى تغذت بحشيش الأرض المسمدة ولدت كل منها وتضاعف عددها ولم تمض شهور حتى وجد أن كل مائة رطل زادت فى هذا القطيع بمعدل ٦٠ ٪ ماين لحم زاد فى الماشية الأصلية وما بين مواليد حديثة أفادها المرعى المسمد بمحلول الفسفور .

وكانت كل أبقار هذا القطيع فى صحة جيدة بخلاف مثيلاتها فى القطعان الأخرى التى كانت عرضة لشتى أنواع الأمراض واقتصت من علماء الحيوان وأطبائه جهد العلاج ونفقات الدواء .

والسماد الفسفورى معروف فى كل مكان ورخيص القيمة يعرفه كثير من علمائنا ولكنهم لا يجرؤن على تجربته لا لأنهم يجهلون بل لأن عقولهم جفت فى الروتين الحكومى عن أى تفكير حتى فى أوقات الشدة . ومن واجبهم كاخصائيين أن يبحثوا لحل المشاكل ولكن هذا النجاح لن يأتى وهم جالسون إلى مكاتبهم .

إن العلم يتقدم بخطوات واسعة لحل جميع المعضلات الإقتصادية والتجارية وعن طريقه لم ينخفض مستوى التغذية ولم تتعقد الأمور فى أسوأ مراحل الحرب لأن علماءهم كانوا ساهرين على تعقب المشاكل وحلها .

فإن آثر علماؤنا البقاء فى غرفهم المركشة فلا يعلم إلا الله إلى أى مركز ينكمش موقفنا الإقتصادى والتجارى

التليفون الآلى للعالم كله :

تستطيع بعد سنوات قلائل أن تدعو صديقك فى الإسكندرية أو أسوان إلى حديث تليفونى بغير تدخل السنترال بل بإدارة قرص التليفون كما تفعل حينما تتحدث إلى جارك .

والطريقة المتبعة الآن هى الاتصال بالمركز الرئيسى الذى يخلى لك الطريق ويوصلك بمن تريد فى أى بلدة أخرى . ولا تستطيع الإتصال به بغير هذه الطريقة وذلك لسببين: أولهما قرص التليفون الذى يعجز عن احتمال آلاف الأرقام لآلاف البلدان . والثانية عملية التحويلات الكهربائية وما فيها من تعقيد فنى كبير .

وقد توصلت إحدى الشركات إلى استنباط طريقة تجعل بها هذا القرص الصغير يشمل ملايين الأرقام كما تيسر لها أيضاً اكتشاف وسيلة رخيصة أقل تعقيداً لنمر التحويلات الكهربائية وسهولة تنقلها بين الأرقام وفى المسافات المترامية ، ويتنبأ مهندسوها بأنه لن يمضى زمن طويل حتى تصقل الطريقة فتستطيع أن تخاطب نيويورك ولندن وربما طوكيو بمجرد إدارة القرص .

فوزى الشتوى

نور العـــروبة

للأستاذ إدوار حنا سعد

[مهداة إلى مجلس جامعة الدول العربية بمناسبة انعقاد دورته الثانية بالقاهرة ابتداء من يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر سنة ١٩٤٥]

على الأفق مجد مشرق وتليد ... وفجر أمانٍ ما لهن حدود
يحث الرعاة الصِّيد نحو صيانه ... خطاهم وتحدو القافلات وفود
مطالعُ أمجادٍ وحلم تحققت ... رؤاه، وسِفرٌ في الحياة جديد
فيـــا شمس، تيهي بالضياء، ففي الربى
دعاء، وفي أرض الكنانة عيـــد
ستعودين من حيث ابتدأت منيرة ... ويبزغ فينا مجـــدنا ويعود
مضى الأمس إن نحمده فهو قد انقضى
بعيداً وإن نذممه فهو بعيـــد
مضى الأمس لم يورث ولا إرث في العلا
مـلاكُ المعـــالي عـــدة وعديد
بداية دنيا المرء إدراكه لهـا ... وأول عزم المرء يوم يريد
فيا أيها الحشد الذي طافت المنى ... عليه وأمسى في الخلود شهيد
رنا الشرق خفاق القـــلوب ورأت
حـــواضر وربا بالسرور وبيـــد
يراقبكم طلق الأسرة حامد ... وينظركم شزر العيون حسود
منى قد غدت حقاً فيا أعذب المنى ... يغرد حيـاها ويورق عود
مخايلها الغراء أضحت شمائلا ... تزود بها الأنوار حيث تزود
وقد وحدتنا في الشجون وفي المنى
جــراح حملناها معاً، وقيـــود
وكم ريش من سهم فأمسك جنبه ... قريبٌ إليه واستُفِز بعيد
وإن مكان الجرح في الجسم واحد
فسيان صـــدر موجع ووريد
على كل أرضٍ قام حلف وعصبةٌ
تنافح عن شأن لهـــا وتذود
وقد كان مدحاً أن يقال وحيد ... فأصبح ذماً أن يقال وحيد
وما حسنٌ أن يغفل الشرق أمره ... ويصحو بنو الدنيا ونحن رقود
إذا نام راعي الضأن عنها تيقظت ... ذئاب قيام في الربى وقعود
وفي الشرق من نور الأخوة شـــعلة
تذوب لهـــولها لظى وحـــديد
فمن رام بغياً ساد في الأرز راسخ ... وغامت غيومٌ في الكنانة سود
وثار عُرام الرافدين وأطلقت ... بنجد شبالٌ مرة وأسـود
وباتت ورود الشرق جمراً مضرجاً
وجُنِّبت طباق الأرض وهي تميد
ومن رام سلماً أطلع التيه واحة ... وضاء له حال ورف نضيد
فلسطين منا حبة القلب لم تزل ... تبادلها أطماعهم وتعود
أقول — لمن أعنيه — اخترقاننا ... جحيم تلظى أو ندى وورود
تطامن موج البحر رهواً وأقبلت ... رخاء رياح رفهة وهمود
رمينا لها صدر الشراع وقد دنا ... إلى الركب شط بالوفاق سعيد
نضيء بفاروق دواجي سبيلنا ... ويدنو قصي في المنى وفريد
ومن نعم الدنيا مليك ممجد ... نماه إلى الدنيا غطارف صيد
أقالوا عثار الشرق قدماً ووجهوا
إلى الهدى ركب العرب وهو شريد
وشادوا لنا أساً فأعلى جداره ... والمجد منهم مبدئ ومعيد

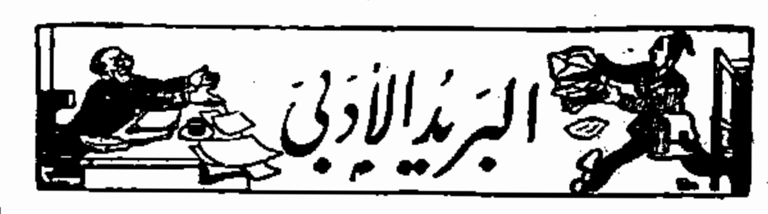
إدوار حنا سعد

نفس ...

للآنسة الفاضلة «دنانير»

وتساءلوا : ما بالُها عَقَلَتْ ... ولطالمـــا جُنَّت بنا حبَّا
ولكم سقتنا من مودتها ... صرفاً وعاطتنا الهوى عذبا
إنّا نرى من أمرها عجباً ... مذ فارقتنـــا نافراً غضبى
هلاّ تعود لنـــا فنعتبها ... ولها علينا الصدق في العتبى؟
أحبابنا ... لا، لا، وحسبكم ... ترخون دون هناتكم حجبا
لا تطمعوا أن تمسّ حبكم ... قلبي الغرير وخالط اللبـــا
لكن لي نفساً تندُّ إذا ... مذق الصديقُ الودَّ أو خبَّا
تأبى سوى عرفان عزّتها ... ولقد تجور فتُنكر القلبا
وهبوا فؤادي من غوايته ... يرضى الرجوع، فهذه تأبى
... ...
ما أبصرت عينـــاي قبلكم ... قوماً غلَوا فاستقربوا الشهبا

(فلسطين) (دنانير)



على هامش الأدب الحجازي :

تفضل الأستاذ الفاضل حسن عبدالله القرشي فأثنى على كلاتى المتواضعة التي نشرتها في مجلة الرسالة الغراء في موضوع « الأدب الحجازي » ، فنعتها بعمق البحث وطلاوة العرض ، وهو تفضل منه أعتدُّه فخراً ولا ينهض بحقه شكرى

ولعل الأستاذ الكريم قد أدرك مما كتبت أنى معجب بنهضة الشعر الحجازي ، فقد ذكرت في غير موضع أن نهضته توشك أن تكون طفرة ، وأن كثيراً من الشعراء قد استطاعوا أن يجمعوا بين المعنى السامى والأسلوب الرصين ، وهى مرتبة لا تتهيأ للأمم في نهضاتها إلا بعد الزمن الطويل والدرس المستمر

وقد كان في وسعى أن أقتصر على هذا القدر من التقريظ والثناء ، لولا حرصى على تصوير حياة الشعر تصويراً يلم بنواحيه ويبرز معالمه ، ليتمثل لقراء العربية واضحاً جلياً ؛ فأشرت في موجز من القول إلى أن بعض الأشعار ينقصها جمال الأسلوب وحسن الرصف ، مع ما فيها من براعة في المعنى وتصرف في الأغراض ، وأعتقد أن مثل هذا النقد الهين لا يغض من سمو الشعراء ، ولا يضع من أقدارهم بعد الذى فصلته من براعتهم وبينته من فضلهم ، وحسبهم أن أعلام الشعراء في كل عصر من عصور الأدب لم يسلموا من النقد والتجريح

على أنى معترف مع هذا بأن الشعر الذى جادت به قرائحهم إبان الحرب الحاضرة لم يصلنى منه إلا القليل ، وأرجو أن يوفقوا قريباً لطبع أشعارهم في دواوين يستمتع بها إخوانهم العرب في سائر الأقطار ، وعندئذ أسجل لهم معجباً فخوراً في كتابي « تاريخ الأدب الحجازي » ما يبدو في أشعارهم من كمال وجمال — وإن كان هذا الإعجاب لم يختف فيما كتبت إلى الآن

وأنا بعد هذا كله موقن — مع الأستاذ القرشي — بوثبة الشعر الحجازي ، متفائل له بمستقبل مرموق بعد الذى عرفته من أن شباب الحجاز يمتازون بالذكاء النادر والخيال الخصب والأمل الفسيح .

وإلى أخى الأستاذ حسن عبدالله القرشي جزيل شكرى وجميل تقديرى

أحمد أبو بكر ابراهيم

مكتبة الكيلاني للأطفال :

[رأى سمو سيف الاسلام الأمير الجليل :
عبد الله نجل جلالة الامام يحيى : ملك اليمن]

الحمد لله رب العالمين

حضرة الأديب الكبير العلامة الأستاذ كامل الكيلاني ،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد ، فقد اطلعنا على مؤلفاتكم القيمة النفيسة في تعليم الأطفال فإذا هى مكتبة برأسها تستحق التقدير

وإنى أعتقد أن الاستفادة بها في كل بلد عربي ، وكل قطر إسلامي ، أمر نافع جداً ، لسهولة أسلوبها ، وإتقان وضعها ، وفصاحتها التي يستفيد التلميذ منها بالتدرج الشيء الكثير في اللغة . وسنقتنى منها كمية يستفيد بها الأولاد في البلد

بارك الله فيكم ، وزادكم علماً ، ونفع بكم

عبد الله ابن أمير المؤمنين
سيف الاسلام

الطهر الخائن لشكسبير من رواية (كما تهواه أنت)

طهارةُ بعض الناس حربٌ عليهمُ
وفضلُهم خصمٌ لهم وغريمُ
وأنتَ من الأطهار ، والطُّهرُ خائنٌ
بمُّ كما نمَّتْ عليك خصومُ

كامل كيلاني

١ — هو عبد الله بن عمر :

عبد الله الذى أراد أن ينزل في قبر أبي بكر ، فقال له عمر : كفيت ، ليس ابن أبي بكر كما قال هيكل ، ولا ابن الزبير كما ظن المحاور (بريد العدد ٦٤٥) ، بل هو ابن عمر كما في كتاب

(أبو بكر الصديق) ص ٢٦٦

وهذا الكتاب المطبوع فى دمشق سنة ١٣٥٣ وقد نفدت نسخه وأخوه (عمر بن الخطاب) وهو فى ٨٠٠ صفحة، بلغت مصادره ١٧٠، وما فيه فقرة إلا وقد عزيت إلى صفحتها من مصدرها، هما أوثق المراجع وأجمعها فى سيرة العمرين، ولولا أن أمدح نفسى لقلت: إنه لم يؤلف فى بابهما مثلهما، ولكن مطبوعاتنا فى الشام لا حظ لها فى مصر ...

٢ — زناه خدم:

ذكرنى ما قال أستاذنا النشاشيبى فى العدد ٦٤٥ بالمثل المشهور عند الفقهاء (زنّاه خدّه)، وفيه شاهد للأستاذ فى أنها زنّاه لا زاناه، وهو بعد مثل لمن يشرح كتاباً فيحرف الأصل، ويقوّل المؤلف ما لم يقل، ثم يعلق عليه التعليقات، ويشرح الشروح

على الطنطاوى

هل هى نجرها شرك كما يراها الرافعى رحمه الله:

عرض إمام العربية الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى فى تحقيقاته الفريدة لكتاب إرشاد الأريب إلى قول مجنون بنى عامر:

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

فأقر حفظه الله رواية (عزها شرك) التى رويت فى الكامل والحماسة والأغانى على رواية (غرها) وقد كنت جنحت للأخذ برواية الكامل وغيره منذ أربع عشرة سنة، ثم رأيت الاستئناس برأى الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى رحمه الله فبعثت إليه بكتاب قلت فيه: ألا يصح أن نصحح غرها بعزها؟ فأجاب طيب الله ثراه بقوله[1]:

«... أما تصحيح غرها بعزها فلا قيمة له، لأن الشرك لاينصب للقطاة إلا وهو يغلبها، إذ لا ينصب إلا لصيدها! فليس هناك شرك يعزها وشرك لايعزها. ويخيل لى أن صواب الكلمة جرها لأن الشاعر يقول: فأمست تجاذبه، ويقول قبل ذلك:

كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح

فكأن ذكر الرحيل يجر قلبه جرا فكيف بالرحيل نفسه؟ وجرها تجعل المعنى أقوى وأفخم.

وأكثر النساخ حين ينسخون يعطون الكتاب لمن يملى عليهم، ومن السهل جدا انخداع السمع فى جرها فيسمعها الناسخ غرها؛ ومثل هذا يقع فى التحريف كثيراً، ومنه الكلمة التى انتقدتها على العقاد فى ابن الرومى «فرأى رجلا مضطرب العقل جاهلا» أملاها الملى (ذاهلا) فسمعها الناسخ جاهلا وكتبها كذلك ...»

وإنا نعرض ما رآه الرافعي رضى الله عنه من الصواب لهذه الكلمة ليرى الأدباء فيه رأيهم.

ولحجة العرب النشاشيبى — بهذه المناسبة — تحيتنا الطيبة وتقديرنا العظيم لما يبذله من جهد فى سبيل لغة العرب، وما يمدها به كل يوم من غزير أدبه، ومخزون تحصيله، وواسع اطلاعه.

محمود البوريم

ذكرى الشاعرين:

نقرأ فى المجلات بين الفينة والفينة مقطوعة لشاعر النيل حافظ إبراهيم، ينشرها العاثر عليها على أنها من شعره الضائع، إذ ليست فى ديوانه المطبوع.

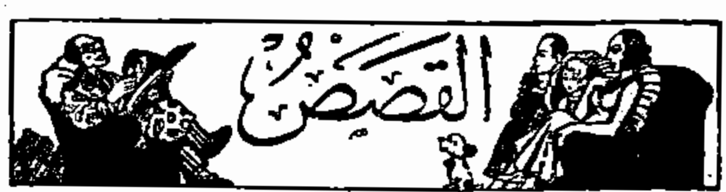
وآخر ما رأينا من ذلك مقطوعة عن الهرم نشرت فى الرسالة (العدد ٦٣٩) عثر عليها ناشرها منقولة عن بعض الصحف القديمة.

فاستغربت أن يخلو منها الديوان مع أن مرتبه ذكر فى جملة المصادر التى رجع إليها كتاب (ذكرى الشاعرين) وهو مصدر قيم عن حافظ وشوقى فيه أشتات شعرهما الحديث وبحوث الأدباء ودراسات الكتاب عنهما ومراثى الشعراء فيهما. والمقطوعة المذكورة هى فى الصفحة (٢٩٠) من (ذكرى الشاعرين).

ونحن إذ نلفت الأنظار إلى هذا المصدر القيم، لا يسعنا إلا شكر تلك الجهود الكريمة التى بذلها الأستاذ المدقق أحمد عبيد فى جمع المواد وتنسيقها وضبطها فجاء كتابه متقناً حافلا بالمتعة والفائدة، فجزاه الله خيراً.

(دمشق) (س)

(١) من خطاب مؤرخ ١٤ إبريل سنة ١٩٣٢.



نهـــاية الطريق (*)

للكاتب الأمريكي : نيوبولد نويز

بقلم السيد محمد العزاوي

هناك بين تلك الصخور التي تحف بحيرة « كومو » فتعقد حول مياهها الضاحكة سداً من ضباب ، وعلى شعاف جبل يرتفع عن البحيرة بثلاثة آلاف قدم ، تجثم كنيسة صغيرة عبثت بها عوادي الزمن ، وهي تشرف على قريتي « كادنابيا » و«مناجيو». ويدور بكل ذلك محيط من جبال فارعة الذوائب سامقة القنن ، تتناهى سفوحها إلى جبال الإلب المظيمة ، ويبعد أقصى منازل القريتين عن الشعب الذي يطوق الجبل بميلين كاملين

وقد كان القوم يحجون في كل عام إلى الكنيسة مرة ، يبتهلون فيها إلى الله أن يكلأهم بعنايته ، فينزل عليهم الغيث حين الجفاف ، وفيما عدا ذلك فنيا ما كانت تزار

وقد كان «بلاجدن» يصعد في طريق لاحب متمعج ، قد امتد لاهماً بين مجموعة من منازل ألبسها الماء ثياباً من زرقة صافية ، وكان الجوساكناً ، لا تخفق فيه نسمة من ريح ، فتداعب أوراق الزيتون التي أكسبتها الشمس بريقاً فضياً بديعاً في الجبل ، وكانت أشجار السرو تلقى على الهضاب ظلالها المستطيلة الوارفة ، بينا كان « بلاجدن » يتقدم في طريقه صعداً شاعراً بكل ما يدور به من بدائع الحسن وآيات الجمال

وعند ما بلغ الكنيسة وولج الباب ، وجد من ودها وظلامها حائلين يقومان من دونه ، ولكنه تخطى الباب إلى الداخل ، ثم خطا بضع خطوات ، فكان لوقع أقدامه رنين كئيب قوى يطوّف كل ربوع المكان ، وكان من العسير عليه أن يتبين في تلك الكنيسة شيئاً بعد أن كانت الشمس في الخارج تغمر ما يرى ، غير أنه ألف الظلمة بعد قليل ، وبصر في الركن البعيد بأربع شمعات موقدات ، فاتجه نحوها بخطى وئيدة ، بينا يتقعقع تحت قدميه هذا البلاط الذي تأكله الزمان

وتجلى للناظر فوق الشموع الأربع صورة لمريم في إطار بسيط رخيص مذهب . وأدمن « بلاجدن » النظر في الصورة مأخوذاً. فقد كانت تحفة من يد صناع بارعة . إذ تجسم فيها مثال رائع من جمال أنثوى رائع . ولعل العينين كانتا أبدع ما في الصورة : كان يشع منهما بريق الإيمان والتفكير والرحمة

وكان الرسم طبيعي الحجم والخلقة ؛ يتجلى في لون دخاني أزرق يوحي بالفكر ويبعث التأمل ، وقد أكسبها نور الشموع المتراقص تحتها سحراً وروعة ، وانجمعت على شفتيها بسمة تأمل ، فبدا الرسم في بعض الأحيان حياً . ولكن ما هذا ؟ لقد انصدع صدر العذراء صدعاً ، وانشق عند القلب شقاً رفيعاً مستطيلا ؛ ثبت بأسفله خنجر دقيق ذو نصل رهيف

وانثنى « بلاجدن » إلى الخنجر ينزعه مفكراً ، ولكن انبعث من ورائه في الظلام صوت يقول :

— أيها السيد ! ما أحب لهذا الخنجر أن يمس !

والتفت «بلاجدن» وراءه وجلا ، فإذا بشيخ يرتدى مسوح الرهبان ، وقد هزل جسمه ، وذبل وجهه ، وتهدل شعره الأشيب ، ولم يبق من ذلك الراهب إلا ذماء قليل وعينان مضيئتان أثارتا طلعة « بلاجدن » بتوقدها الغريب ، وأما بقية وجهه فقد كان شبيهاً بوجوه الموتى

وسأله « بلاجدن » :

— ولكن لماذا ؟

فخطا الراهب إلى الأمام في ذلك النور الشاحب المتراقص ،

(*) نيوبولد نويز من الكتاب الأمريكيين الذين تأخر بهم العهد إلى أن شهدوا للمذهب الواقعي Realism يغزو ميدانهم القصصي . ولكن ذلك لم يمنعه أن يتقدم إلينا بنوع قديم كانت له مكانة في الربع الأول من القرن العشرين : وهو « قصص الحب Romance of Love » ولقد ثبت هذا النوع حق الميدان إلى أن عصفت به الواقعية بشروطها القاسية وقيودها المتعددة . و«نهاية الطريق» تعد من أروع ما كتب نويز في هذا الباب . فإن تناهى القصة إلى غموض العاطفة الدينية ليكسبها نوعاً من جو سوقي رفيع ، فيسمو بها إلى أعلى درجات هذا الفن .

ثم رمق الشاب الواقف بإزائه برهة ، وتفرس فيه بعينيه الثاقبتين الباحثتين . وكأنما وجد شيئاً فى ملامح ذلك الوجه كان يبحث عنه ، فانطلق لسانه فى نبرات حنون عجب لها بلا جدن .

— سيدى ! إن لتلك قصة . فهل لك فى سماعها ؟

فأومأ بلا جدن أن نعم . فسارا فى الظلام حتى بلغا الصف الأول من مقاعد صغيرة واطئة ، وقد استوى أمامهما رسم العذراء وتواثبت عليه أضواء الشموع الأربع وظلالها ؛ وبدا الخنجر فى أسفله يعلوه التراب .

وشرع الراهب يتحدث ، وبلا جدن ينصت ، وبصره قد انتظم الرسم البديع .

« كان ذلك من أمد بعيد ، حين كانت « روزا » تعيش مع أبويها فى منزل صغير قائم فى مناجيو . وكانت ترعى للشيوخ عنزاتهم ، فتسبح كل يوم فى أشعة الشمس ما سمحت لها دورة الفلك ، وتغنى ما يطيب لها من فنون الغناء ، فينساب صوتها فى الجو كما تنساب مياه ضاحكة — كساها الظل — فى جوف غدير صغير !

« كانت تغنى دائماً وتطرب أبداً ؛ فقد كانت فتاة لم تبخل عليها الشمس بالسناء البهيج ، ولم ينقصها الله حظها من الجمال البديع

« وهناك كان « جيوفانى » ؛ فقد كان يغدو كل صباح على كرمها الجميل حيث تنمو الزهور الصفراء ذات القلوب الوردية ؛ فكانت دائماً ترشقه بأوراقها وقلوبها من وراء النافذة الصغيرة ؛ فيمضى الفتى فى الجد نفسه ، ويكلفها فى العمل شططاً . ولكنه كان يغنى ويغنى . أولم يكن كل ذلك من أجلها ؟

« وكثيرا ما كانت عنزاتها تعدو على كرمه وقت دلوك الشمس ، فيسوقانها أمامهما إلى المنزل وهما يضحكان وينشدان ، وقد أخذ كلاهما بذراع صاحبه ، والشمس قد أرسلت عليهما — من وراء الجبال — أشعتها الذهبية فانعكست على مياه البحيرة ، أو يسيران معاً وقد تلطفت أشعة الشمس من بعد توهج فيهيىء لها تاجا من الزهر مفتنا فى تنسيقه ، متأنقا فى ترصيعه ؛ فتقبله وهى تضحك ضحكات مرحة .

« كانا كطفلين رعتهما العناية يا سيدى وغفل عنهما الدهر : فكثيرا ما كانا ينفقان الليل ساهرين جالسين إلى البحيرة ؛ يناقلها أحلامه ، ويفضى إليها بأمانيه ؛ بينما تنثر ذوائب شعرها الجميل على خده الأحمر نسمات لطيفة وانية ، والقمر قد أرسل إليهما قبلاته ، وانتظمت أشعة البحيرة ، فبدا الماء طريقا من لجين يصل بين الشاطئين .

« وكان الناس يرددون من أمرهما أن زواجهما يتم فى موسم جنى العنب . وقد كان كذلك يا سيدى ، لولا أن بدت قوة جديدة فى أفقهما : تلك هى الكنيسة !

« وأكبر الظن أن ليس بين الناس من يدرى أنى تتحكم هذه القوة الطاغية فى قلب فتاة غضة الجسم ، ريقة الشباب . لقد هتكت صدرها رغبة ملحة أن تنضوى تحت لواء الكنيسة ، وتدخل ذلك الدير القائم خلف البحيرة ؛ تاركة دفء الشمس وراءها وضياءها .

« لم تكن تريد أن تذهب ! وكان هذا التناقض بديعاً أليماً فى وقت معاً . هذه الفتاة الغضة الحسناء ، تلوح كأنما هى جزء من ضوء الشمس ، وعبير الزهر ، وشدو الطيور ؛ كان عليها أن تجعل من دون ذلك حجابا كثيفاً فتوصد عليها باب الدير العتيق !

« أما جيوفانى فقد جن جنونه ، وطار عقله شعاعاً . ولا بأس عليه فى ذاك ولا جرم . فقد كان من القسوة أن تنتزع من بين شفتيه كأس نسج حولها وشى الأمانى ، وحاك مطارف الأحلام ... أخذ بين يديه يديها الناعمتين ، ثم جثا على ركبتيه ضارعاً ملتاعاً ، وقد غص بدمعه المتسايل على خده الأحمر . وبكت كذلك روزا . ولكنها ما استطاعت أن تجيبه إلى ما طلب ... لعلها كانت تحب الفتى يا سيدى ، ولكن شيئاً أعظم من حب فتاة ، وأعتى من غرام فتى !

« واستمهلته روزا ليلة أخرى ، كيما تقرر فيها ما تفعل . وقد أزمعت أن تأتى هنا إلى هذه الكنيسة فتبتهل إلى مريم أن تنير لها الطريق وتدعوها أن تهديها سبيل الرشاد . وقبل الفتى شفتيها الباردتين ثم ذهبت ... لقد كان طفلا حين ظن بأنها تؤثر ذراعيه القويتين !

« إلى هنا جاءت الفتاة لتجثو طوال الليل فوق هذا الصخر الجافى تبكى وتبتهل ، فقد كانت تحب الفتى حقا ، ولكن العذراء

رنت إليها من فوق الشموع الأربع واحتوتها بعينيها الحزينتين المفكرتين . وسريعاً ما امتزجت روح الفتاة بروحها — وما إن انبلج نور الفجر حتى عبرت البحيرة إلى الحيطان البيضاء ، دون أن ترى حبيبها مرة أخرى .

« ولعل الفتى — عندما انتهى الأمر — قد أصابه مس أو جنون . إذ خرج معلناً كرهه لله وللعالم . وانطلق فى ذاك الطريق الأبيض الصغير إلى حيث نحن الآن جالسان .

« وهنا استل هذا الخنجر الذى ترى ، ثم طعن به قلب العذراء وهو يتمتم بقسم خافت مبهم — ولهذا لم أدعك تلمسه .

وأومأ بلاجدن برأسه بينا صمت العجوز هنيهة ، ثم عاد يقول :

« واختفى جيوفانى عن الناس يومين ، ثم عاد فظهر دون أن تمحى سيماء الجنون عن وجهه — وهناك على شعب الحدور قابلته جنازة بيضاء . حقا لقد كانت جنازة فتاته . فأهطع إليها ولكنهم أوقفوه . لم يؤنبه أحد على ما اجترم ؛ ولكن تنازع الناس حيال ذلك عاطفتان قويتان : خوف ورحمة .

« وكانت روزا قد ماتت فى الدير جاثية على ركبتيها فى نفس اللحظة التى طعن فيها جيوفانى صدر مريم . وقد أخبروه بعد مدة معدودة أن وجهها — حين ألفوها لدى الهيكل — كان يشبه وجه مريم إلى حد بعيد . ولم يكن لموتها من سبب معروف واضح ، وإنما هو سر غاب عن أذهان البشر ، ودق عن أفهام الناس : ولقد أخبرته الراهبات أنها كانت إذ ذاك تبتهل إلى الله أن يمنحها من لدنه قوة .

« وتوقف الراهب عن الكلام ، فبقى الرجلان صامتين برهة طويلة ، يصعدان النظر معاً فى وجه جميل يشرف عليهما من فوق شموع أربع . وخيم سكون قطعه بلاجدن بقوله :

— وماذا تظنه قد حدث بعد ذلك ؟

— لا أدرى !

واتصل السكون فوق رأسيهما مرة أخرى ، فعاد بلاجدن يقول وهو يعرك عينيه :

— وعلى أية حال فقد أدت الفتاة دين الله عند جيوفانى .

فأجابه الراهب فى هدوء :

— هكذا يخيل إلى يا سيدى ... فإنى أنا جيوفانى ! ...

السيد محمد العزاوى